

الْمَكِيمُ وَالْأَسْأَلُ

فنون الأدب العربي

الفن النعيمي

٣

المكِّمُ وَالْأَسَال

بقلم

حنا الفاخوري

الطبعة الرابعة



دارالمعارف

مقدمة

الشرق مهد الحكمة والمثل، وذلك أنه موطن النور، ومُطلَقَ العقل والتصور العقلي، يتدفق فيه الصفاء على الأذهان فتتبلور، وتندفق فيه الحرارةُ على القلوب والجسوم فتتهتز الأعصاب اهتزازات تنطلق معها مولدات العقل دُفْعاً دُفْعاً فيعصرها اللسان عصراً، ثم يرصها رصاً، ثم يرسلها لإرسالاً، وإذا هي عبارات موجزة تكاد تنوء بعبء المعنى الثقيل، تنطوي على نور العقل ونور اليقين، وتحتوي على خبرة العين والأذن واللسان والشعور، وتنبض بالحقيقة الفطرية والحقيقة المكتسبة.

هكذا كان الشرق من أقصاه إلى أدناه، ظر الحكمة والمثل، وهما فيه قديمان بقدمه، وقد نثرا على أكتاف جباله وفي بطون أوديته، في منبسط سهوله وعلى أجنحة الرياح في صحاريه، يحدو بهما الركبان ويتغنى بهما الرعاة، كأنهما كتاب القدر، ومقاييس لمن تبصر واعتبر. وقد حفلت بهما آداب الهند ومصر. وزخرت بهما كتب العبرانيين والسريانيين والعرب، فتطلع الغرب إليهما نهماً، ومد إلى الشرق يداً تجنى الثمار اليانعة، وإذا بحكمة الشرق في أساس كل حكمة، وإذا بها ذخيرة الإنسانية وطريقها إلى الصواب، وأول مدماكٍ من مداميك الفلسفة الأخلاقية.

والحكمة والمثل من أدل الأمور على عقلية الشعوب وعاداتها، ولهذا بلدنا الجهد الوافر في إيضاح معالمهما لدى العرب منذ الجاهلية إلى يومنا هذا، وفي إيضاح التطور فيهما، مفصلين ما انطويا عليه من معنى، مبينين العلل والنتائج، قائلين كلمتنا في القيم. وعلى الله أن يكمل السعي بالنجاح، وهو مصدر الحكمة والنور.

الفصل الأول

الحكمة والمثل

١ - ماهيتهما :

جاء في كليات أبي البقاء : « الحُكْمُ في اللغة الصرف والمنع للإصلاح ، ومنه الحكيم لأنه يمنع نفسه ويصرفها عن هواها ... والحكمة هي العدل والعلم والحكم والنبوة ، والقرآن والإنجيل ، ووضع الشيء في موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وأفعال الله كذلك لأنه يتصرف بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء وافق غرض العباد أم لا » ؛ وفي عُرْف العلماء هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها ، وقال بعضهم : الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المعبر عنه بمعرفة ما لها وما عليها ، المشار إليه بقوله تعالى : « ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً » ؛ وإفراطها الجريزة وهي استعمال الفكر في ما لا ينبغي كالمتشابهات ، وعن وجه لا ينبغي كالمخالفة الشرائع ؛ وتفريطها الغباوة التي هي تعطل القوة الفكرية والوقوف على اكتساب العلم ، وهذه الحكمة غير الحكمة التي هي العلم بالأمر التي وجودها من أفعالنا بل هي ملكة تصدر عنها أفعال متوسطة بين أفعال الجريزة والبلاهة كما قررنا ؛ « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » أي السنة ، ذكره قتادة ، ووجه المناسبة أن الحكمة تنظم العلم والعمل كما أن السنة تنظم القول والفعل ؛ « وما أنزلَ عليكم من الكتاب والحكمة » يعني مواظب القرآن ؛ « ولقد آتينا لقمان الحكمة » يعني الفهم والعلم ؛ « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة » يعني النبوة ؛ « ادعُ إلى سبيل

ربك بالحكمة » يعنى بالقرآن ... يستخلص من ذلك كله أن الحكمة هي الكلام القائم على العلم والموجه إلى الصواب والسداد في القول والعمل .

وجاء في الكايات أن « المثل اسم لنوع من الكلام وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ، يستعمل في السراء والضراء، وهو أبلغ من الحكمة . . . ويسمى الكلام الدائر في الناس للتمثيل مثلاً لقصدهم إقامة ذلك مقام غيره ، والشرط في حسن التمثيل هو أن يكون على وفق المثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والحسة والشرف ، وفي كلام العرب : أسمع من قرداد، وأطيشش من فراشة ، وأعز من منج البعوض ، ونحو ذلك . . . » وقال المبرد : « المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه، فقولهم مثل بين يديه إذا انتصب، معناه أشبه الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان أى أشبه بما له الفضل ، والمثال الفصاح لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعالم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيلُ

فواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

وقال ابن السكيت : « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبهوه بالمثال الذى يُعمل عليه غيره . » وقال غيرهما : « سُميت الحكيم القائم صدقها في العقول أمثالاً لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثل الذى هو الانتصاب . » وقال إبراهيم النظم : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة . » وقال ابن المقفع : « إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وأنى للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . » وقال الميداني :

« المثل ما يمثل به الشيء أى يشبهه » . وقال أبو هلال العسكري : « أصل المثل من التماثل بين الشيئين فى الكلام كقولهم : كما تدين تُدان . وهو من قولك : هذا مثل الشيء ومثله كما تقول شَبِهه وشَبِهه ، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلاً ، وقد يأتى القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً . وضرب المثل جعله يسير فى البلاد ، من قولك : ضرب فى الأرض إذا سار فيها ، ومنه سُمى المضارب مضارباً . ويقولون الأمثال تحكى . يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاءت من العرب ولا تغير صيغتها فتقول للرجل : الصيف ضَيَّعَتِ اللبن ، بكسر التاء لأنها حكاية » .

يستخلص من كل ذلك أن الحكمة والمثل من جوامع الكلم ، وأن الحكمة تنفيذ معنى واحداً من نهى أو أمر أو إرشاد ، وأن المثل يفيد معنيين : معنى ظاهراً ومعنى باطناً ، أما الظاهر فهو حدث من أحداث التاريخ أو ما إلى ذلك ، وأما الباطن فمرجه إلى الحكمة والإرشاد . وهكذا يلتقى المثل والحكمة فى المؤدى ، وهكذا يجرى الواحد على أقلام بعض الكتاب فى موضع الآخر .

والمثل لفظة سامية نجدتها فى جميع اللغات السامية وتعنى التشبيه والموازنة أو المقارنة . وأكثر ما تنشأ الأمثال فى طور البداءة من الشعوب ، وأكثر الشعوب ميلاً إلى هذا النوع من الكلام الشعوب السامية ؛ وأكثر ما يقوم التشبيه فى الأمثال بين الإنسان والحوان ، ويستخلص من ذلك التشبيه سنة للحياة ، أو طريقة للابتعاد عن منقصة ، أو تحقير لحالة من الأحوال ، أو ترغيب أو ترهيب أو ما إلى ذلك .

وهكذا فالحكمة والمثل فلسفة الحياة الأولى ، ولهما فى تاريخ الفكر أهمية كبرى لا يدركها إلا من تعمق فى دراسة نفسية الشعوب ، ودراسة التطور الفكرى عند البشر .

٢ - الحكمة والمثل عند العرب :

العرب ، كثيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة ، جيل شديد الميل إلى إرسال الحكمة وضرب المثل ، وهما على لسانهم في كل حال ، يدعمون بهما الأقوال ، ويعلاون بهما الأعمال . فيدرونهما عند كل فرحة وترحة ، ويوردونهما في جميع أحداثهم ، وما يقصون من اجتماعهم وحياتهم ، حتى لتصبح الأمثال والحكم لديهم من ذخائر الدهر ، ومن سنن الحياة ، ومن أكاليل الشيخوخة ، ومن الأمور المعول عليها في تنظيم الشؤون البيتية والتبئية والقومية .

وللحكمة والمثل عند العرب محل واسع في التقدير . قال ابن عبدربه في العقد : « قد مضى قولنا في العلم والأدب ، وما يتولد منهما وما ينسب إليهما من الحكم النادرة والفظن البارة ؛ ونحن قائلون ، بعون الله وتوفيقه ، في الأمثال التي هي وشيُّ الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحسنى المعاني . . . فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيل : أسير من مثل . وقال الشاعر :

ما أنتَ إِلَّا مَثَلٌ سائِرٌ يَعْرِفُهُ الْجَاهِلُ وَالْخَابِرُ

وقد ضَرَبَ اللهُ ، عزَّ وجلَّ ، الأمثالَ في كتابه ، وضربها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في كلامه ، قال الله ، عز وجل :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ » . وقال : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ » . ومثَلُ هذا كثير في آي القرآن .

وجاء في المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى أو شروان في شأن العرب ما يلي : « قال النعمان : وأما الأمم التي ذكرت فآية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلها . قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها

وبأسها ، وبخائها وحكمة ألسنتها . . . وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ، وروثق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضررهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس . ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات فخر العرب ، لأنهما دليلًا الحصافة والفهم . ولا عجب في ذلك فإنهما ، كما قلنا سابقاً ، فلسفة الحياة الأولى ، وعصارة خبرة الدهور ، وخلاصة نور العقل ونور اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ، ومرآة ما يجول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ولذلك عنى علماء العرب ، من أدباء ولغويين ومؤرخين ومفكرين . يجمع تلك الأمثال وتفسيرها ودراستها ، فوضع المفضل الضبي (٧٨٦ م) « كتاب الأمثال » الذي طبع في الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ . ووضع أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (٨٣٧ م) « كتاب الأمثال » الذي طبع منه قسمان الثامن والسابع عشر مع ترجمة لاتينية بعناية الأستاذ برتو غوطا سنة ١٨٣٦ م ، ثم طبع كله في مجموعة « التحفة البهية والطرفة الشبية » بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ . وجمع حمزة الأصفهاني (٩٦٠ م) عدداً كبيراً من الأمثال في كتاب لا يزال مخطوطاً ومحفوظاً في مكتبة مونيخ . وكان كتاب الأصفهاني من المصادر الرئيسية التي رجع إليها وأخذ عنها كل من كتب بعده في هذا الموضوع ، وقد نقل عنه الميداني قسماً كاملاً جعله في كتابه « مجمع الأمثال » . ووضع أبو هلال العسكري (١٠٠٥ م) كتاب « جمهرة الأمثال » الذي حفظ في عدة مخطوطات ثم طبع في بيجي سنة ١٣٠٧ هـ . ثم على هامش « مجمع الأمثال » للميداني في مصر سنة ١٣١٠ هـ . ووضع أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (١١٢٤ م) كتاب « مجمع الأمثال » (١) وهو ستة آلاف مثل

(١) جاء تحت عنوان الكتاب ما يلي : « يشتمل على نيف وستة آلاف مثل ، ورتبه على حروف المعجم في أوائلها ، وذكر في كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الفلق ، ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويسبغ الشرق ، وافتتح كل باب بما في كتاب أبي عبيد أو غيره ، ثم =

ونيف . طبع في بون سنة ١٨٣٨ في ثلاثة أجزاء وجعل تحت كل مثل ترجمة باللاتينية للعلامة فريتاغ ، وطبع في بولاق سنة ١٢٨٤ هـ . باعتناء محمد الصباغ ومحمد قطة العدوي ، وفي طهران سنة ١٢٩٠ هـ ورتبه الشيخ حسين بن أبي بكر الملقب بالنجمي الكرمانى ، وطبع في مصر بالمطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ في جزأين وبهامشهما كتاب « جهرة الأمثال » . وقد عد كتاب الميداني المرجع الأكبر في هذا الموضوع .

وقد اهتم غير من ذكرنا للأمثال والحكم عدد وافر من الأدباء والعلماء كالماوردي (١٠٥٨ م) صاحب « أدب الدنيا والدين » ، والشيخ إبراهيم الأحدث (١٨٩٠ م) صاحب « تفصيل اللؤلؤ والمرجان في فصول الحكم والبيان » ، و « فرائد الآل في نظم مجمع الأمثال » .

قال شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربي » : « وقد درج

سأعقبه بما على أفضل من ذلك الباب ، ثم بأمثال المولدين ، وجعل التاسع والعشرين في أساء أيام العرب ، والثلاثين في نبد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، وبالجملة فهو غاية في حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد » .

قال السيوطي في « طبقات النحاة » : إن الزمخشري وقف على كتاب « مجمع الأمثال » للسيداني فحسده عليه فزاد في لفظه « الميداني » نوناً قبل الميم ، فصار « الميداني » ومعناه بالفارسية « الذي لا يعرف شيئاً » ، فعهد الميداني إلى بعض كتب الزمخشري فجعل الميم نوناً فصار « الزمخشري » ومعناه « بائع زوجته » . ويروي أن الزمخشري بعد أن ألف « المستقصى » في الأمثال وقع له مجمع الأمثال للميداني ، فأطال نظره فيه وأعجبه جداً ، ويقال إنه قدم على تأليفه « المستقصى » لكونه دون « مجمع الأمثال » في حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد .

وقد اختصر « مجمع الأمثال » شهاب الدين محمد بن أحمد القضاعي والإمام الناضل أبر يعقوب يوسف بن طاهر الخوي من تلاميذ الميداني ، ونظمه بعض فضلاء الدولة العثمانية ووافق فراغه من نظمه عام تسع وسبعين وألف للهجرة والجنود العثمانية محاصرون قلعة قندية ، من جزيرة إقريطش وأول النظم :

ذَحْمَدُ مِنْ عَلَّمْنَا الْأَمْثَالَ يَسُوقُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى
ظَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ مِنْ نَبْوَةٍ زَاهِرَةٌ كَجَنَّةٍ مِنْ رَبْوَةٍ

كل من ألفوا في الأمثال على أن يرتوها حسب حروفها الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها ، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون أحياناً حوادثها التي جاءت فيها ، معتمدين على ضروب من الظن والتخمين مما جعل الأستاذ نيكلسون يزعم أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة للعصر الجاهلي . وحقاً ما يزعمه فقد طال العهد بين العصر الجاهلي وبين عصر هؤلاء المفسرين ، وإنه لينبغي أن نشئ على صنيعهم ، ولكن مع شيء من الحذر في الأخذ بتفسيرهم وقصصهم ، ما دنا منهم القصص الجاهلي عامة وما نسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث . وهكذا نظر العرب إلى الأمثال والحكم نظر اهتمام كلي ، وهكذا صرفوا في جمعها وترتيبها وتفسيرها جهوداً لا تقدر . وإن من أجال فيها الفكر يجد أن لكثير منها صلة وثيقة بالبيئة الزمانية والمكانية، وأن لتلك البيئة أهمية كبرى في فهمها وتفسيرها . وقد غابت أصول بعض الأمثال التاريخية ، وضاعت من ثم المعالم في استكشاف فحوايها ، فظلت غامضة يتيه الشراح في مسالكها فيعمدون إلى التأويل والحديث ويخطون في التعليق عليها خبط عشواء^(١) .

وللأمثال العربية مصادر مختلفة ، فمنها ما ينتسب إلى البادية ؛ ومنها ما ينتسب إلى مكة والمدينة والحيرة والبصرة والكوفة وواسط وحمص ؛ ومنها ما هو من أصل نصراني يتصل بالإنجيل المقدس أو بسائر الكتب الدينية المسيحية ؛ ومنها ما هو من أصل غريب عن كل ما ذكرنا، تقلبت به الأيام من أمة إلى أمة ومن

(١) من ذلك قولهم : « بعين ما أرينك » فإن معناه « أسرع » ، وقد علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد حرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه » . ومن ذلك قولهم : « لا يعرف الهر من البر » ؛ فن الشراح من قال : البر القارة . ومن الكوفيين من قال في التفسير : « لا يعرف من ير عليه من يره » . ونقل السيوطي عن ابن فارس أنه قيل « الهر : دهاء الفم . والبر : سوقها » . وقيل : « الهر ولد النور ، والبر ولد الثعلب » - هذا ولا عجب أن يشوب الأمثال بعض الغموض وهي وليدة الأحداث والعادات وهي ، في أحيان كثيرة، مما نبت نبتاً على الألسنة في غير تنخيل ولا كثير تحبير .

شعب إلى شعب فتلقفه العرب وصاغوه بقالب عربي صميم .

وقد انطوت الأمثال على أحداث تاريخية كثيرة منها المأم كحرب البسوس ومنها الضئيل الذي لا أبته له . وهكذا كانت سجلاً ضخماً للغث والسمين من الأحداث والمعاني ، وهكذا كانت على كل حال ذات قيمة تاريخية واجتماعية وفلسفية وأدبية .

الفصل الثاني

الحكمة والمثل في الجاهلية

نشأ المثل والحكمة في الجاهلية نشوءاً طبيعياً . وبما لا شك فيه أن كثيراً من الأمثال والحكم لم يثبت للجاهليين ، وأن قسماً منها لعبت به يد التحريف ، وذلك أن العرب لم يدونوا أدبهم بل اعتمدوا فيه على حافظة الرواة ، ولم يكن حفظ النثر بالأمر اليسير ؛ زد على ذلك أن علماء البصرة والكوفة في العصور التالية أضافوا إلى الأدب القديم شيئاً كثيراً قصد الاستشهاد به على آرائهم في النحو واللغة . ومهما يكن من أمر فالنثر القليل الذي يمكننا أن ننسبه إلى الجاهلية من الأمثال بطلنا على عقلية القوم واتجاهات تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة ، كما يوضح لنا أساليب تعبيرهم .

ولم تكن الحكمة الجاهلية من نصيب النثر وحده ، بل تعدته إلى الشعر ، فجاءتنا في دواوين بعض الشعراء رافلة في ثوب الوزن والقافية ، مغلقة بغلاف الأسلوب الشعري ، مدعومة بالتشبيه الجاهلي الحمقى ، مرصوفة الجوانب ، حافلة بالصور الجاهلية المادية .

والأمثال الجاهلية متفاوتة من الوجهة الأدبية الفنية ، فبينما ترى بعضها قائماً على التشبيه والاستعارة والتمثيل ، مركباً تركيب صقل وتجميع وتعبير ، ترى البعض الآخر عارياً من كل فن وبيان ، خالياً من كل مهارة وجمال . ومرد ذلك إلى أن بعضها صادر عن طبقة الشعراء والخطباء وأرباب الفصاحة واللسن ، والبعض الآخر صادر عن الشعب ، أما أرباب الفصاحة فقد صقلوا أمثالهم وجبروها تحبيراً فقالوا مثلاً : مَقْتَل الرجل بين فكَّيه — في الجريرة تشرك العشيبة — إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه — دعوا دماً ضيَّعه أهله — جَدَحَ جُورَيْنِ من سويق

غيره ^(١) - إلى غير ذلك مما تتجلى فصاحته لكل ذى عينين . وأما الشعب فقد أرسل أمثاله إرسالاً من غير ما عناية ولا صقل ولا تحبير ، وقد خالف فيها أحياناً سنن النحو والبيان وأجاز فيها من الحذف والضرورات ما لا يجوز في سائر الكلام .

وإن من أعمال النظر في الأمثال الجاهلية وجدها مستقاة من حياة البدوى المادية والمعنوية والقبليّة . فهي منحوتة ، قلباً وقالباً ، من رمال الصحراء وجفاف أرضها وسماها ، من حيوانها ونباتها ، من عادات البدو وتقاليدهم ، من حروبهم وغزواتهم ، من آرائهم في الشجاعة والجلود والشرف والعزة والعصبية القبليّة وسائر الأخلاق العربيّة . فالبدوى ، إن أراد التعبير عن الشهرة ، ذكر يوم حليلة فقال : « ما يوم حليلة بسر » ^(٢) ، وإن أراد التعبير عن الإباء قال : « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها » . وإن أراد التعبير عن تشتت الشمل ذكر سد مأرب والسيّل العرم فقال : « تفرقوا أبادى سبأ » ^(٣) . وإن أراد التعبير عن التجربة والحنكة قال : « إنه ليتعلم من أين تؤكل الكتف » . وإن أراد التعبير عن المناعة قال : « أمنع من عقاب الجوّ » . وإن أراد التعبير عن بلوغ الغاية قال : « جاوز الخزام الطيبين » ^(٤) . وإن أراد التعبير عن الجود قال : « أجود من حاتم » . وإن أراد التعبير عن العمل بلا فائدة قال : « إنه ينفخ في رماد » . وإن أراد التعبير عن السير على غير هدى عمد إلى الناقة العشواء وقال : « إنه يخبط خبط عشواء » . وإن أراد التعبير عن الهرب من شر والوقوع في غيره قال : « كالمستجير من

(١) يقال : جلع السويق إذا لته بالسنن أو بغيره ، وجوزن مصفراً اسم رجل ، وهو مثل يضرب لمن يجمد بمال غيره .

(٢) حليلة بنت الحارث بن أبي شعر النسائي حضرت هذا اليوم وانتصر به الفاسقة فضرب المثل لشهرته .

(٣) أى تشتتوا عقب مصيبة أو مكروه ؛ وقد قيل المثل عند ما انفجر سد مأرب المشهور وانفج سيل العرم الذى أغرق وأتلف وكان سبب تفرق قبائل الجنوب في جميع الأنحاء .

(٤) الطبق : حلمة الصرع من الخليل وغيرها ، وهو مثل يبنى أن الأمر بلغ غايته .

الرمضاء بالنار . إلى غير ذلك مما يزيحك في البادية ورمضانها ، والإبل وأحزمها ،
والسماء وعمبانها ، والجاهلية وأخلاقها وعاداتها .

وإن حاولنا التعمق في الأمثال والحكم الجاهلية خرجنا بفلسفة بدائية طبيعية
مفادها أن الحياة ميدان جلالٍ وكرامة ، وأن الحق فيها للقوة ، وأن زينة المرء شرفه .
أما الجلال فواجب اجتماعي قبل ي يدعو إليه تنازع البقاء والحفاظ على الحياة ؛
وذلك أن البادية قبائل قبائل ، وأن الأرض جفاف وقسوة ، وأن الحياة معلقة
بضرع وزرع ، وماء وكليل ، وأن « العشيبة تشترك في الحريرة » ، وأنه لا بد من
« نصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً » ، فلا بد إذن للبدوي من الجلال لرد غارة أو دفع
تعدٍ أو استرجاع مرعى أو ماشية . وأما الكرامة فواجب مقدس لا تطيب الحياة
إلا بالتيام به : وتتجلى الكرامة بالصدق « إن كنت كذوباً فكنت ذكوراً » ،
والحفاظ على العرض . وحفظ الجار وإن جار ، والأخذ بالثار ، والشجاعة
والجود وما إلى ذلك .

وهكذا تبدو لنا الفلسفة الجاهلية فلسفة أخلاقية عملية . بعيدة عن
الماورائيات : فلسفة مادية روحانية ، وروحانياتها مسحة أخلاقية كريمة . وهكذا
تبدو لنا تلك الفلسفة أنانية قبلية ، تضطرب في حيز ضيق ، وتحاول أن تعالج
حسن التصرف في حياة البادية على أحسن طريقة ممكنة للحفاظ على الحياة الذاتية
والقبلية ، وللحفاظ على الشرف الذاتي والقبلي ، وللحفاظ على الصيت الحسن
والحياة الطيبة على السنة الناس .

وهكذا نرى أن للأمثال والحكم الجاهلية قيمة تاريخية ، وقيمة اجتماعية
أخلاقية . فهي تطلعننا على طبيعة البلاد ، وعلى أحوال العباد ، وهي تطلعننا على
بعض أيام العرب وعلى طائفة من أحداثهم وعوائدهم ، كما تقفنا على نزعاتهم
وعقلياتهم ونظيرهم إلى الحياة . وإننا سنقف قليلاً عند زعماء المثل والحكمة في العهد
الجاهلي ، لأن في دراسة آرائهم دليلاً واضحاً على حقيقة ما قدمنا . ونحن نغني

بأولئك الزعماء : أكرم بن صيفى ، وزهير بن أبى سلمى ، ولييد بن ربيعة ، وطرفة ابن العبد ، وعدى بن زيد .

● أكرم بن صيفى (٦٣٠ م) حكيم العرب وقاضيا ، ومثال الرصانة والتعقل . سار إلى كسرى أنو شروان فى وفد عربى لإظهار فضل العرب وتفوقهم ، وكان الخطيب المفوه الذى عصر الدهر القديم خبرة وحكمة ، والذى أرسل الكلام عبارات مقطعة ، وفى كل عبارة أنوار وأضواء ؛ فقال له كسرى : « ويحك يا أكرم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ! قال أكرم : الصدق يبنى عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكنى . قال أكرم : ربّ قول أنفذ من صوّل » .

وكلام أكرم نثار منشور ، وأفكار ملتزمة من غير رابط ولا جامع . وإنه لمن الصعب بل من المستحيل جمع تلك الأفكار فى تسلسل منطقي . فحاولنا فى التنظيم والترتيب محاولة تقريبية . وأول ما نقوله إن آراء ابن صيفى لا تخرج عن نطاق العمل ، فهى من الفلسفة الأخلاقية التى تعالج المجتمع ، والذات فى ذلك المجتمع . ورأس المجتمع السلطة . والسلطة فى نظر البدوى أمير . والسلطة ضرورية لقيام المجتمع : « شر البلاد بلاد لا أمير بها » . وذلك أن البلاد أى المجتمع كالجسم ، والجسم بلا رأس هو كل شىء غير الجسم الذى يدعى جسماً ، وبتعبير فلسفى : المجتمع مادة والسلطة صورة . والسلطة للغير لا للنفس : للنفع العام : « أفضل الملوك أعمها نفعاً » . والسلطة عدل واستقامة ، وأقوى دليل على ظلم السلطان خوف البرىء : « شر الملوك من خافه البرىء » . والسلطة اعتدال فلا هى تشديد ينفر ولا هى تراخ يؤلف : « من شدّد نفر ومن تراخى أآف » . والسلطة هيئة قائمة على حسن اختيار الأعوان وعلى الصدق فى القول والعمل : « خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة » — « الصدق يبنى عنك لا الوعيد » — « ربّ قول أنفذ من صوّل » . والسلطة أخيراً قوة تنفيذية بواسطة الجنود ، و « أحق الجنود بالنصر من حسنت سريره » . وقبل كل شىء وبعد كل شىء : السلطة

غير الاستعداد . وغير التفرد بالحكم والرأى . بل هى شورى لأن « آفة الرأى الهوى » . و « المرء يعجز لا محالة » . ومن ثم «إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى » و « من فسدت بطانته كان كالفأص بالماء » .

ثم إن خطة الحياة بين أفراد المجتمع قائمة بالحزم . والصبر . والبر بالآباء . والقناعة وضبط اللسان وما إلى ذلك من الحلال . ويزيد أكم على ذلك العبارة التالية : « حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة » . وكأنى بها عبارة ناشزة بين سائر الحكم الذهبية . وهى فى الحقيقة غير ناشزة بالنظر إلى البيئة والمجتمع لأن :

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صَلٌّ وَتَعْبَانُ

فهو يعنى بحسن الظن الاستنامة . والاطمئنان . والاسترسال ؛ وهو يعنى بسوء الظن الحذر والتيقظ ؛ فرب نكبة يجرها الاطمئنان إلى الناس والاستنامة إليهم . ورب مصيبة يدفعها الحذر والتيقظ .

تلك خلاصة آراء ذلك الحكيم الجاهلى . وهى فى الحقيقة عصارة الحكمة العملية . وهى فى الحقيقة ذات قيمة تستلقت النظر والعقل المفكر . ولأكم حكم وأمثال أخرى كثيرة وهى كلها من هذا الطراز العالى .

● زهير بن أبى سلمى (٥٣٠ - ٦٢٧ م) قاضى الشعراء . وهو شاعر مضرى ولد فى نجد . وترعرع فى غطفان . وتخرج على بشامة الشاعر الحكيم خال أبىه . وشهد حرب السباق بين عبس وذبيان وسعى فى الصلح ومدح المصلحين فى معلقته التى اختتمها بطائفة من الحكيم .

يرى زهير فى معلقته إلى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين تحملا ديات القتلى فى حرب السباق أو حرب داحس والغبراء ، وحقنا الدماء بين المتقاتلين . فانتح كلامه بالوقوف على الأطلال جرياً على عادة الأقدمين ثم انتقل إلى مدح المصلحين ، وتطرق إلى الصلح فيبين أنه سبيل الهناءة فى العيش

إذا كان صادقاً . وبيّن أن الحرب شر و وبال . ثم نثر حكماً جعلها قاعدة السعادة وطريق الوفاق .

يبدو لنا زهير من معلقته شيخاً شبع من الأيام ، وحكيماً تفهم قيمة الحياة ومعناها ، لا تطفئ عليه عاطفة جموح . ولا يثور به خيال صيباني ، فهو هادئ السرب ، يتوده عقل نير وبصيرة واعية . فيتخذ العادات العربية النبيلة نبراساً . في ظل حياة هادئة مساعدها في هدوئها وسلامها . وهو ينصب نفسه حكماً ومرشداً في قومه ، يشجع المصلحين ويدعو إلى التفاهم .

وكأنني به يحتم قصيدته بطائفة من الحكم ليزيد من مدحه ومن أسدى إليه النصيح ثباتاً وعقيدة ، وكأنني به يريد أن يسن دستوراً للحياة الاجتماعية ليصب فيه عصارة معارفه وخلاصة خبرته . فيعمل عقله التفكيرى لا عقله التأليفي — وأنى له أن يؤلف ويربط بين الأفكار وهو الرجل الفطرى ؟ — ثم ينثر أفكاره وإذا هي نظريات صادقة في الحياة وحسن التصرف ؛ وهو يذكر قانون العمل ويضيف إليه قانون العقوبات ، وهو يقدم قانون العقوبات كنتيجة طبيعية للإهمال في القيام بالعمل . وزهير يقف موقف التأمل الذى يذكر ويذكر من غير أن ينهى أو يأمر ، وكلامه من ثم دعوة إلى التأمل والاعتبار ، فلا حث ، ولا حض ، ولا ترغيب ، ولا ترهيب ، إنما بسط للحقيقة واستنتاج يصل بطريقة غير مباشرة إلى الحث والأمر والنهى . وكأنني بأبياته ، في صيغتها وأسلوبها ، صوت القضاء يدوى في أذن الوجود .

هذا هو المجمل وإليك التفصيل :

الحقيقة الأولى التى يقف عندها زهير في أول أمره هي أن الحياة طريق وأنها إن طالت ، مدعاة إلى السأم :

سَمِئَتْ تَكَايِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ .

فالحياة تجرى والناس معها يجرّون . حقيقة هائلة وقف عندها الفلاسفة مفكرين ،

وحاولوا الكشف عن مكنوناتها فعادوا مضطربين . . . حقيقة نللمسها ولا نكاد نأبه لها : الحياة تجرى ، والحياة سلسلة مصائب وصعوبات . والأحياء في مغامرة غريبة : إنهم يسرون وهم لا يعلمون ما ينجي لهم الغد ، والمنايا في صفوفهم تخبط خبط عشواء لا تبصر ولا تميز . والناس أبدأ سائرون وهم لا يكادون يأبهون :

رَأَيْتُ الْمُنَايَا خَبِطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ تُمْتَهُ وَمَنْ تُحْطِي يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ

فعل العاقل إذن أن يعتبر وأن يملأ الحياة من الأعمال الاجتماعية الصالحة التي تلي الشأن وتقصى الشر . وها هو ذا زهير يبسط دستوره الاجتماعي في ناحيته : العمل والعقوبة الناتجة عن الإهمال .

وأول شيء يراه من ضرورات الحياة الاجتماعية المصانعة ؛ والمصانعة هي « الدبلوماسية » الاجتماعية ، هي أن يلبس الإنسان لكل شيء لبوسه ، هي أن يجارى الناس والأحداث في غير رياء حقيقي ، وفي غير خروج عن الشخصية وعن الرأي الشخصي ؛ هي أن يلين المرء جانبه ليسلك ، وأن يتلمس لينتلق وينتلق . ويرى زهير أن المصانعة لا بد منها في أمور كثيرة لأن الذي لا يصانع يحطم :

وَمَنْ لَا يُصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضْمَرُّ بِأَثْيَابٍ وَبِوَطْأٍ بِمَنْسِمٍ

وبعد المصانعة يقدم زهير رأيه في المعروف وبذله ، ويرى أن المعروف حصن للشرف ، وأن بذل الفضل مجلبة للمحامد ولا سيما إذا كان البذل في محله ، بل إن البذل في غير محله مجلبة للقدح والذم . وأفضل المعروف ما كان للقوم والعشيرة ، وهنا تظهر النزعة الاجتماعية القبلية عند الشاعر : تلك النزعة الجاهلية التي لا تعرف أن تتخطى الحدود والسدود ، ولا تعرف أن تبسط ذراعيها للإنسان بصفة كونه إنساناً .

ويتنقل الشاعر بعد ذلك إلى فلسفة المسألة الاجتماعية على أنها تنجي من

فتكة القوة . وهنا تظهر نزعة الشيخوخة التي تؤثر الصبر والتحمل على الغضبة ، والتي تنكر لفلسفة القوة التي نجدها عند المتنبى مثلاً . فالمصانعة والمسائلة وعض النظر والإغضاء كل ذلك آمن للإنسان الذي يريد أن يعيش في ملام وإن كان السلام في كوخ حقير . وثأني بذلك الشيخ يعود فينتفض انتفاضة بدوية فيقول إن من لا يدفع الظلم يظلم ، وإن من لا يقف في وجه الطغيان يغرق ، وإن من لا يكشر عن أنيابه يؤكل :

وَمَنْ لَا يَدُدُّ عَن حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهَدَّمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

وفي هذا البيت وثبة جاهلية ، وفيه صدى لقول المثل اللاتيني المعروف : « إن أردت السلم فتأهب للحرب » .

ثم يصل زهير إلى الحقيقة التي تحتوى خلاصة دستور الاجتماع : أكرم نفسك تكرم . احترم نفسك تحترم . فبقدر ما يعرف الإنسان قيمة نفسه : يسعى وراء المحاسن ويتجنب المساوئ .

ثم يختم الشاعر دستوره بحقيقة أخيرة ، وهي أن من أراد إصلاح نفسه فليقبل عليها في صباحها لأن تقويم الغصن اللين ممكن وأما تقويم الغصن القديم الأيام فطريق إلى الحطمة والانكسار .

وهكذا يبدو لنا زهير في حكمته رصيناً عاقلاً ، بعيداً عن الغلو والغرور ، قريباً من المادة والحقيقة المادية ؛ وهو في حكمته يطلعنا على الناحية المترصنة من البيئة الجاهلية ، وعلى النفسية الفطرية في نزعاتها الجذوية ، إلا أنه يبقى ضمن نطاق الحياة العادية ، ولا يستمد أفكاره من الحقائق الماورائية والتعاليم الدينية . فحكمته من الأرض وإلى الأرض .

● لبيد بن ربيعة (٥٦٠ - ٦٦١ م) هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري المضرى . وقد نشأ في قومه كريمة شريفاً ، وفارساً شجاعاً . دخل في الإسلام نحو

سنة ٦٢٩ . وقضى أيام شيخوخته في الكوفة . وقد توفي نحو سنة ٦٦١ للميلاد وله من العمر أكثر من مائة سنة .

وللبيد شعر حكيم ، إليك شيئاً منه . قال برئى أخاه أربد وينظر إلى الحياة نظرة الحكيم الرصين :

بَلِينَا وَمَا تَبِيلَى النُّجُومِ الطَّوَالِجُ وَتَبَقَى الدِّيَارُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(١)
 وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَافِ دَارٍ مَضْمَنَةٍ فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ^(٢)
 فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَكَلُّ امْرِئٍ يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشُّهَابِ وَضَوْؤُهُ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ^(٣)
 وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانُ ، فَعَامِلُ يُتَبَرُّ مَا يُبْنَى وَآخِرُ رَافِعُ^(٤)
 فَمَنْهُمْ سَمِعِيدٌ آخِذٌ بِنَصِيبِهِ وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعُ
 أَلَيْسَ وَرَائِي ، إِنْ تَرَخْتُ مَنِيَّتِي ، لَزُومُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ^(٥)
 أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدِيبٌ كَأَنِّي كَلَّمَا قَمْتُ رَاكِعُ
 فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ ، وَالنَّضْلُ قَاطِعُ^(٦)
 فَلَا تَبَعْدَنُ إِنْ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدُ عَلَيْنَا ، فَدَانِ لِلطَّلُوعِ وَطَالِيعُ^(٧)

(١) المصانع : أى المدن والحصون وكل ما عظم بناؤه .

(٢) الأكفاف : الجوانب . دار مضنة : دار يرضن بها .

(٣) يحور : يتحول .

(٤) يتبر : يهدم .

(٥) تراخت منيتى : تأخر زمن موتى .

(٦) أخلق : أبل . جفنه : غمده وقرابه . القين : حداد السيوف .

(٧) لا تبعدن : خطاب لأخيه .

أَعَاذِلُ ، مَا يُدْرِيكَ إِلَّا تَظَنِّيًّا
 أَأَجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ؟
 لِعَمْرِكَ ، مَا تَدْرِي الضُّوَارِبَ بِالْحَصَى
 أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ، مَا أَخْلَا اللَّهَ ، بَاطِلٌ
 إِذَا الْعَمْرُءُ أَسْرَى لَيْلَةً ظَنَّ أَنَّهُ
 حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبِيلِهِ
 فَقَوْلَا لَهُ ، إِنْ كَانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ :
 فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصُدِّقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدَا
 وَكُلِّ أَمْرِي يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعْيُهُ
 إِذَا رَحَلَ السَّفَارُ ، مِنْ هُوَ رَاجِعٌ ^(١)
 وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِيبَهُ الْقَوَارِعُ ؟ ^(٢)
 وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ ، مَا اللَّهُ صَانِعٌ ^(٣)
 وَكُلُّ نَعِيمٍ ، لَا مَحَالَةَ ، زَائِلٌ
 قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ ، أَمْرًا
 وَيَقْنَى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الْحَبَائِلُ
 أَلَمَّا يَعِظُكَ الدَّهْرُ ؟ أَمْكَ هَابِلٌ !
 لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ
 وَدُونَ مَعَدُّ فَلَنتَزَعَكَ الْعَوَاذِلُ
 إِذَا كَشِفَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْمُحَاصِلُ

أكثر حكمة لبيد في شعره الذي رثى به أخاه أربد وقد انقضت عليه صاعقة فأودت بحياته . وهذه الحكمة هي حكمة القلب الذي اشتد عليه الحزن ، والنفس التي لم تجد ملجأ تتعزى فيه غير التأمل في حقيقة الحياة ، والعقل الذي لم يتجرد من العاطفة ولم يسلك مسلك الحمد النظرى في ما ينثر من آراء .

وجمل آراء لبيد أن حياة الإنسان صائرة إلى الزوال ، وأن كل ما يملكه الإنسان هو وديعة لا بد من ردها آجلاً أو عاجلاً ، وأن الناس

(١) أعاذل : يا عاذلتي أي يا لائمتي . تظنياً : أي بالظن والحدس .

(٢) القوارع : المصائب .

(٣) الضوارب بالحصى : أي اللواق يرمين بالحصى طيراً جائماً ويزجرنه حتى إذا طار إلى

اليمين فغادى وإذا طار إلى اليسار تشامن .

اثنان : بان وهادم ، وأن السعادة نصيب قسم من البشر، والشقاء نصيب القسم الآخر . . . لهذا كله وجب على الإنسان أن لا يجزع إذا ألمت به مصيبة ، وأن يلزم جانب الصبر والجلد ، ولا سيما أن القوارع تصيب كل كريم .

وحكمة لبيد ذات نزعة كثيبة هي نتيجة نظرة جريئة وصادقة إلى الحياة ، ونظرة إلى الفقيده وقد ترك فراغاً في نفس أخيه ؛ وإنك وأنت تقرأ أبيات لبيد تشعر بجو من الوجوم ورهبة الموت ، وتشعر بأن الشاعر يستخف بالحياة مهما طالت ؛ فهو يزوج بك في هوة الموت لترى وتقتنع ، ويكرر فكرته التشاؤمية من غير ملل ، رغبة منه في التقرير ، وهكذا يسير بك الشاعر من قبر إلى قبر ، ومن لحد إلى رماد ، ومن رماد إلى لا شيء مادى وإلى نفس تخلد في رحمة الله . وهو لا يؤمن بمخرافات الجاهليين من زجر الطير وما إلى ذلك اعتقاداً منه أن ما يصنع الله لا يعرفه بشر .

وحكمة لبيد ملتصقة بنفسه وليست كحكمة زهير آراء عامة موجهة إلى الناس . فهو يجعل لنفسه نصيب غيره ، وهو يشعر بنكبات الحياة فنشعر بشعوره . ثم إن في كلامه من السهولة والسلامة ما يزيد تأثيراً (١) .

● طرفة بن العبد (٥٤٣ - ٥٦٩ م) هو الشاب الذي أنهالت عليه المصائب فأبرزت شخصيته وأنطقته بالحكمة التي نثرها في ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعي والحكمة . ومدار حكمته على زوال الحياة واصطناع الخير ثم على حسن المعاملة وعلى التصرف بعقل وفتنة . فالحياة ؛ مهما طالت ، سريعة الزوال والأعمال هي التي تحاسب الإنسان في آخر الحياة ؛ والشاهد على زوال الحياة ذهاب لقمان بن عاد الطويل الأيام والإسكندر ذي القرنين الشديد الحسام . وأحسن زاد يتزوده الإنسان هو الخير والخير وحده :

الْخَيْرُ خَيْرٌ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أُوْعِيَتْ مِنْ زَادٍ

وسبيل الإنسان في الحياة أن يكون ذا صدر رحب فيعامل الناس بخلق واسع .

خالط. الناس بخلق واسع. لا تكن كلباً على الناس تهر

ويقدم طرفه للناس دستور الحكمة والفطنة فيقول :

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلًا فَأَرْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوَصِّهِ
وإن ناصح منك يوماً دنا
وإن باب أمرٍ عليك أتوى
فلا تنأ عنه ولا تقصه
وإن باب أمرٍ عليك أتوى
فشاوِرْ لبيباً ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه
فإن القطيعة في نقصه
ولا تذكر الدهر في مجلس
حديثاً إذا أنت لم تحصه
ونص الحديث إلى أهله
فإن الوثيقة في نصه (١)
ولا تحرصن فرب أمرى
حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله
وقد يعجب الناس من شخصه
وآخر تحسبه أنوكاً
ويأتيك بالأمر من فسه (٢)
لبست الليالي فافنيتني
وسربنى الدهر في قمصه

وإنك لتلحظ في هذه الأبيات حكمة اجتماعية عميقة مبنية على عقل مفكر

وبصيرة نيرة .

(١) الوثيقة : الإحكام .

(٢) الأنوك : الجامل . من فسه : من أصله .

● عدى بن زيد العبادى (٦٠٤ م) هو عدى بن زيد بن حماد بن أيوب النيمى . كان والده متولى البريد فى الحيرة من قبل كسرى أنوشروان ، كما تولى تربية النعمان بن المنذر الرابع . وقد اتصل ابنه عدى بفارس وتعلم الفارسية ، وكان ترجمان كسرى أبرويز ملك فارس وكاتبه بالعربية ، وكانت له الكلمة المسموعة لديه ، فلما قتل عمرو بن هند أشار عدى على ملك الفرس بتولية النعمان بن المنذر على العرب ففعل ، ثم إن النعمان تخوف من عدى وسمع لأقوال الوشاة والحاسدين فسجنه ، فلما بلغ كسرى خبر سجنه أرسل إلى النعمان يأمره بإطلاقه ، فلم يفعل النعمان ، بل أمر بقتل السجن تخلصاً منه . وكان ذلك نحو سنة ٦٠٤ م .

وكان عدى شاعراً نصرانياً ، وقد نظم الشعر بآثماً فيه من روحه الدينى زهداً ، ومقتبساً فيه من التوراة قصصاً مثل قصة حواء والحية . وإليك شيئاً من قصيدة نظمها فى السجن ووجهها إلى النعمان أبى قابوس ، وفيها طائفة من حكمه :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بالدَّهْرِ ، أَأَنْتَ المُبْرَأُ المَوْفُورُ ؟ (١)
 أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَيَّامِ ، بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَعْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ المُنُونِ خَلْدَنَ ، أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ (٢)
 أَيْنَ كِسْرَى ، كِسْرَى المُلُوكِ أَبُو سَاسَانَ ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ ؟
 وَيَبْنُو الأَضْفَرَ الكِرَامِ مُلُوكِ الرُّومِ ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
 وَتَبَيَّنَ رَبُّ الخَوَرَنَقِ إِذْ أَشْرَفَ يَوْماً ، وللهُدَى تَفَكِيرُ (٣)
 سَرَّهُ حَالُهُ ، وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ ، وَالبَحْرُ مُعْرِضاً وَالسَّدِيرُ (٤)

(١) المبرأ الموفور : أى الذى لا يناله الدهر بأذى .

(٢) الخفير : الحارس .

(٣) الهدى : العقل .

(٤) معرضاً : ذاهباً عرضاً وطولاً . والسدير : نهر ، وقيل قصر .

- فَارْعَوَى قَلْبُهُ ، فَقَالَ : وَمَا غِبْطَةٌ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ بِصِيرُ ؟ (١)
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْأَمَةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ (٢)
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ ، فَالَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالدَّبُورُ ! (٣)

يبدو لنا من هذه الأبيات وغيرها أن حكمة عدى هي حكمة جاهلية استخلصها من خبرته الشخصية ومن مبادئه الدينية ، وكانت سطحية بعيدة عن التحليل والتعليل ، تدور حول فكرة أو فكرتين رئيسيتين مرجعهما إلى أن الموت خاتمة حياة كل إنسان وأن الموت لا يفرق بين صغير وكبير ، وضعيف وقدير ، وغنى وفقير . وعدى يحاول البرهان على آرائه بالتشثيل والتشبيه ، ويعمل جهده ليبث الرهبة في قلب السامع عله ينظر إلى حقيقة الدهر وأحوال الناس فيتعظ ولا يتعلق بحطام الدنيا بل يصبو إلى الآخرة ، ويرتقى بنفسه وقلبه إلى العلاء .

وأسلوب عدى هو أسلوب السذاجة ، وكلامه سهل قد لينته الحاضرة وجعلته ناعم الحرس رائع التشبيه والتصوير أحياناً . بعيداً عن كل تعقيد ، وهذا اللين ينحدر أحياناً إلى الركاكة . وإنك لتشعر أن لغة ابن زيد تتأقل أحياناً ، وأن الشاعر لا يملك ناصية القوافي فلا تنقاد له ، ولا يقلبها كما يشاء ، ولهذا كله لم يعده العلماء الأقدمون حجة في الشعر (٤) .

(١) فارعوى قلبه : رجع عن غروره .

(٢) الإمة : غضارة العيش والنعمة .

(٣) ألوت به : ذهبت به . الصبا : الريح الشرقية . الدبور : الريح الغربية .

(٤) طالع كتابنا « الجديد في الأدب العربي وتاريخه » الجزء ٥ ص ٢٣٥ - ٢٣٧ .

الفصل الثالث

الحكمة والمثل في الإسلام

انتقلت أمثال الجاهلية وحكمها ، في قسم كبير منها ، إلى الإسلام ، وذلك على السنة الشعب والرواة ، ثم زاد عليها الإسلام قصبا آخر كبيراً مصطبغاً بصبغته ، متمشياً وروحه . وإن من تتبع تلك الأمثال والحكم وجد طائفة كبيرة منها في القرآن الكريم وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ولا سيما على بن أبي طالب ، ثم على لسان طائفة أخرى من الناس اشتهرت بالقيمة الاجتماعية والسياسية . وإننا سنقتصر في دراستنا هذه على الحكمة في القرآن الكريم وفي نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب .

● القرآن الكريم : قال أحمد أمين : [في القرآن من الأخلاق نوعان نوع هو تعليم لآداب السلوك : « وإذا حُيِّمَ بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ، « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » ، ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق : وفاء بالوعد ، وصبر في الشدائد ، وعدل مع من أحبت أو كرهت ، وعفو عند المقدرة ، وعفة في غير تزمت : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، « خُذْ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

هدم الإسلام الوحدة القبلية ، والوحدة الجنسية ، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس ، وعلم أن معتنى الإسلام كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ أمره : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا

بين أخويكم » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفي الحديث : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية » .

حتم الطاعة لله . والطاعة للرسول ، والطاعة لأولى الأمر في الأمة ما أطاع ولى الأمر أوامر الله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وفي الأثر : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى ، فهذه الصفات التي وصف الإسلام بها الله نقلهم - من عبادة أصنام وأوثان - وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر وإسفاف في الفكر - إلى عبادة إله وراء المادة « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . وكان الإله عند أكثرهم إله قبيلة وإن اتسع سلطانه فإنه قبائل أو إله العرب . فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون ، وبيده كل شيء ، وعالمياً بكل شيء . فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له ، واسع السلطان . واسع العلم ... كان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء ، وانخفضت قيمة أخرى . وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس . . .

وقد عقد الأستاذ « جولدزبير » فصلاً في نقط النزاع بين الإسلام والفضائل عند العرب في الجاهلية عنوانه « الدين والمرءة » . وهو يتلخص في « أن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية . وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان . فالشجاعة الشخصية . والشهامة التي لا حد لها . والكرم إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة . والقسوة في الانتقام ، والأخذ بالتأثر من اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل . هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية . أما في الإسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره . والصبر ، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين . والقناعة . وعدم التفاخر والتكاثر ، وتجنب

الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة» . . .
 وبعد ، فإلى أي حد تأثر العرب بالإسلام ؟ وهل انحلت تعاليم الجاهلية
 ونزعات الجاهلية بمجرد دخولهم في الإسلام ؟ الحق أن ليس كذلك . وتاريخ
 الأديان والآراء يأتى ذلك كل الإباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، وألدين
 الموروث والحديث ، يستمر طويلاً ، ويحل الجديد محل القديم تدريجياً ،
 وقل أن يتلاشى بناتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام ، فقد كانت
 النزعات الجاهلية تظهر ، من حين إلى حين وتحارب نزعات الإسلام ، وظل
 الشأن كذلك أمدأ بعيداً . ولتقص طرفاً من مظاهر هذا النزاع .

جاء الإسلام يدعو إلى محو التعصب للقبيلة ، والتعصب للجنس ، ويدعو
 إلى أن الناس جميعاً سواء : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفي الحديث :
 « المؤمنون إخوة ، تكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من
 سواهم » ، وخطب النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « أيها الناس ؛
 إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم
 من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » . وروى مسلم أن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قاتل تحت راية عمية ^(١) يغضب لعصبة
 أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقد قتل قتلة جاهلية » . وآخى رسول الله
 بين المهاجرين والأنصار بعد ما كان بين المكيين والمدنيين من عداة . . . ومع
 كل هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة إذا بدا ما يهيجها .
 ولما ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها كما كانت في الجاهلية ،
 وكان بينهم وبين بني هاشم في الإسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ،
 افتخر الأمويون بالدعاء والحلم وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم
 يكثر ونهم في ذلك ، وكان جداهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة في
 الجاهلية ، وعاد النزاع في الإسلام بين القحطانية والعدنانية ، فكان في كل

قطر عداء وحروب بين النوعين ، واتخذوا في كل صقع أسامى مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزدي وتميم ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، ومثل ذلك في الأندلس ، ومثل ذلك في العراق . . .

وأنت إذا نظرت إلى الشعراء في بني أمية ، وجدت فيهم هذا المعنى واضحاً جلياً ، فالشعراء انحازوا إلى قبائل ، ثم أخذوا يشيدون بذكر قبائلهم ، ويبهجون غيرهم شأن شعراء الجاهلية . ولعل أصدق مثل لذلك ما ترى في هجاء جرير والفرزدق والأخطل .

ليست ناحية العصبية هي وحدها ما يظهر لنا في عهد الإسلام من نزعات جاهلية ، فهناك نزعات أخرى لا تقل عنها وضوحاً .

من ذلك : حروب الردة ، وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومدلة لهم ، ونظروا إليها نظرهم إلى قبيلة تتسلط على أخرى ، وتضرب عليها الإتاوة ، فانهزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها لأبي بكر . . .

أضف إلى ذلك ، أن بعض المسلمين — وخاصة من سكان البادية — كانوا ينزعون في معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجرة وحمة وشراب ونحو ذلك . . .

بل إن كثيراً من شبان بني أمية ، وبعض شباب بني هاشم كانوا يعيشون عيشة هي إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد ابن معاوية وصحبه ، فقد حكى المسعودي « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملامى ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله » . . .

بجانب هذا ترى قوماً صبغهم الإسلام صبغة جديدة ، حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين ، كالذي ترى في سيرة أبي بكر وعمر

وكثير من الصحابة ، وروع وزهد وتواضع ، والتزام شديد لأوامر الدين ،
 وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهلياً يناقى الإسلام ، وتجد في خطبهم
 وكتبهم وأقوالهم أثر الإسلام بيناً ، حتى كأنهم خلقوا في الإسلام خلقاً جديداً .
 إذن كان في العصور الأولى الإسلام نزعات جاهلية ، ونزعات إسلامية ،
 كانتا تسيران جنباً إلى جنب ، والذي يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت في
 الأدب الأموي - وخاصة الشعر - أكبر أثر ، فالمعاني الجاهلية ، والهجاء
 الجاهلي ، والفخر الجاهلي ، والحمية الجاهلية ، كلها واضحة أجلى وضوح
 في الشعر الأموي . فأما النزعة الإسلامية فظهرت في العلوم الشرعية ، فقد
 أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمدون منهما
 الأحكام ، ويستخرجون المواعظ] .

● علي بن أبي طالب (٦٦١ م) هو الإمام رابع الخلفاء الراشدين ،
 صاحب كتاب « نهج البلاغة » الشهير . وكتاب نهج البلاغة مجموعة خطب
 ورسائل وحكم جمعها الشريف الرضي ، وانتهى من جمعها سنة ١٠٠٩ م / ٤١٠ هـ
 قال الشريف : « ورأيتُ كلامه ، عاياه السلام ، يدور على أقطاب ثلاثة ،
 أوها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ ،
 فأجمعتُ . بتوفيق الله سبحانه ، على الابتداء باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن
 الكتب ، ثم محاسن الحكم والأدب ، مفرداً لكل صنف من ذلك باباً ، ومفصلاً
 فيه أوراقاً ، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عن عايجلاً ، ويقع
 إلى "أجلاً" . . . وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير منسقة ، ومحاسن
 كلم غير منتظمة ؛ لأنني أورد النكت واللمع ، ولا أقصد التتالي والنسق » .

وقد ذهب البعض إلى الشك في صحة نسبة نهج البلاغة إلى الإمام ، ولكنهم لم
 يأتوا من البراهين بما يقنع ، ولم يثبتوا من الشواهد ما يقف أمام عين الناقد البصير .
 وحكّم على هي ولا شك عصاره تفكيره ، وإشعاعات بصيرته النيرة ، وخلاصة
 خبرته ومعرفته للناس والحياة . وهي ولا شك دستور قيم من دساتير الحياة المثلى التي

ترفع المجتمع البشرى إلى مستوى عالٍ وتقيم للعدل والسلام ميزاناً وللإخاء والمحبة قسطاً .
تدور حِكْمَ الإمام علىّ حول قضايا الاجتماع العامة ومرجعها إلى واجبات
الإنسان نحو نفسه وواجباته نحو غيره . أما ما يتعلق بنفس الإنسان فيدور
حول معرفة النفس أولاً . قال الإمام : « هلك امرؤ لا يعرف قدره » . ومعرفة
النفس في نظره أصل كل إصلاح وأساس كل معرفة وطريق إلى كل خير . وهي
الشرط الأساسى لحسن معاملة الغير ، والابتعاد عن الشر ، فإن « من نظر في
عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » ، و « من كرمت عليه نفسه هانت عليه
شهواته » ومعرفة النفس الحقيقية تكشف العيوب وتحمل على التأدب : « من
نصب نفسه للناس إماماً ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وإيكن تأديبه
بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس
ومؤدبهم » . ومعرفة النفس مجلبة لمرضاة الله : « من كان له من نفسه واعظ كان
عليه من الله حافظ » . تلك هى نظرية الإمام علىّ في معرفة النفس وهى نظرية
فلسفية قديمة رددتها الأجيال ، وجعلها الحكماء وأرباب التصوف فى أساس كل
علاقة اجتماعية كما جعلوها قسطاً لكل رقى فى عالم الروح . واو كان كل
إنسان عارفاً نفسه تمام المعرفة ومطلعاً تمام الاطلاع على مساوئها ومحاسنها لسمى
جهده فى التزيد من المحاسن واستئصال المساوئ ، ولكان للغير رحيماً ، وعن
مساوئ الغير معرضاً ، وهانت المعاملات وقلّ الغضب والحقد ، وازدادت كمية
الاحترام والرأفة .

وما إن ينهى الإمام علىّ من وضع الأساس حتى يتوجه إلى الإنسان
حائثاً على رفع المداميك النفسية مدامكاً فوق مدامك؛ فيحرض على التقوى
لأن التقوى سلاح النفوس والقلوب و « التى رئيس الأخلاق » . ويحرض
على التواضع لأنه ثمرة معرفة النفس ، فن عرف نفسه كره أن يتعالى على غيره ،
وجعل نفسه فى محلها ؛ ويحرض على القناعة لأن « المال مادة الشهوات »
وعلى الاعتصام بالعقل والمعرفة « فلا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا

ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاورة .

والعلم يفرض التزيد منه والجهل يقود إلى الإفراط والتفريط . والعلم يجب أن يقترن بالعمل والإقدام : « لا تجعلوا علمكم جهلاً ، و يقينكم شكاً . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم فأقدموا . » وهكذا تظهر نزعة الإمام على الاعتزالية في تقديمه العقل ، وتظهر نزعته العملية التي تجعل العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ، وتظهر أيضاً شخصيته القوية في عقيدتها وإقدامها ، في انطلاقها وسيطرتها ، في زهداها وسموها .

وينتقل الإمام على من العلم إلى اللسان وإذا به يقول : « إذا تم العقل نقص الكلام » و « لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه » . وإذا بعلى ينحى على الثرثار باللوم ويجعل اللسان مصدر بلايا الإنسان لأنه « جموح بصاحبه » .

وهكذا يسير الإمام على في دستوره الأخلاقي من خلة إلى خلة ، حتى يصل إلى علاقات الإنسان بغيره ، وإذا هو ذونزعة إنسانية رائعة ، يريد أن يجعل الإنسان نفسه ميزاناً فيقول : « اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واکره له ما تكره لها » . وإن في هذا الكلام ما نجده في الإنجيل المقدس دستوراً للمحبة السامية التي بشر بها السيد المسيح . ثم يقول الإمام على مواصلاً : « احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك » . وأى دستور أشد إنسانية وحقيقة من هذا الدستور ؛ وهو يريد أن يدفع الشر بالخير : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، وارد شره بالإنعام عليه » . ويريد أن ينظر الإنسان إلى الإنسان بعين الرضى فيرى فيه الخير وإن بدا منه الشر فيقول : « لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً » ؛ وهذا منتهى ما وصل إليه السمو .

ثم ينتقل الإمام على إلى قلب الإنسان ويرى أن الحياة لا تحلو إلا بالصدقة فيسن دستور الصداقة ؛ وإذا الأصدقاء ثلاثة والأعداء ثلاثة : « فأصدقاؤك : صديقك ، وصديق صديقك وعدو عدوك ؛ وأعداؤك : عدوك ، وعدو صديقك ، وصديق عدوك » ؛ وإذا اكتساب الإخوان ضرورة :

« أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم » ؛ وإذا الصداقة تطلب الملاينة : « من لان عوده كثفت أغصانه » ؛ وإذا الصديق « لا يكون صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكته ، وغيبته ، ووفائه » ؛ وإذا الحسد آفة المودة : « حسد الصديق من سقم المودة » . وعلى يبين من يجب تجنب صداقتهم من الناس فيقول : « يا بني ، إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن يفعلك فيضرك ؛ وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ؛ وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ؛ وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ! » . ثم ينتقل إلى الأخلاق الاجتماعية الأخرى من وفاء ، وعدل ، وصدقة ، وجود ، وما إلى ذلك . ومن أروع ما قال الإمام : « إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » .

تلك بعض آراء على وهي مشورة في نهج البلاغة من غير ما ترتيب ولا تنسيق ، ولكنها كلها من هذا النمط العالى الذى لا ترتقى إليه إلا كبار النفوس . تتجلى لنا في حكم الإمام على شخصية قوية تنصب في كل لفظة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية ، وعقل واسع يجمع خبرته إلى ما يستقيه من أقوال الكتب السماوية ، ويذهب بقوة في العمق وفي الطول مقتنصاً الجواهر من مكائنها ، محلقاً في أجواء الأجواء ! ومنطق سديد يحاول الإقناع بالحقيقة والإيجاز المرصوص واللغة التي تجمع المتانة والصدود إلى الالين والسهولة ، والبساطة إلى الروعة . وعلى في حكمه معتزلي النزعة باتجاهه العقلي ، وصورف المذهب باتجاهه الزهدي ، وواقعي الميل باتجاهه العملي ، وهو على كل حال إنسانى بكل ما في اللفظة من اتساع وسمو وخلاود ^(١) .

(١) طالع كتابنا « الجديد في الأدب العربي وتاريخه » الجزء ٥ ص ١٠٠ - ١٠٥ .

الفصل الرابع

الحكمة والمثل في العهد العباسي وعهد الانحطاط

كانت الحكمة في العصور السابقة لهذا العهد من ثمار التجربة والدين والتفكير الشخصي القطري أكثر مما كانت من ثمار الفلسفة . ولما جاء العهد العباسي وانتشرت حركة النقل وشاعت الثقافات العالمية بين العرب ، وأنهال العلماء على كل علم يتدارسونه ويضعون له الأسس والأركان ، ويحددون له القواعد والغايات ، شاع التفكير الفلسفي في كل جانب من جوانب المعرفة ، وشاع الجمع والتصنيف ، وراح العرب أولاً ينقلون الحكم والأمثال التي حفلت بها آداب الهند واليونان والفرس ، ويضيفونها إلى حكمهم وأمثالهم ، ثم راحوا بعد ذلك ، في انكفاء عميق على تلك الذخائر الفكرية ، يستنبطون ما ينير سبل الحياة ، ويساعد على السير القويم في الوجود ، وإذا للعقل منصة عالية يلقي من فوقها الدروس ، وإذا العقل إمام أكبر ، أو شمس تدور حولها الأقمار ، وإذا للمثل والحكمة قيم أوسع آفاقاً ، وأغوار أشد امتداداً ، وإذا في الحكمة والمثل نظرات مذهبية في الحياة وما وراء الحياة .

وها نحن أولاء نعرض لعدد قليل من أولئك الذين اشتهروا بضرب الحكمة والمثل أو الذين جمعوا منهما ما أتيح لهم جمعه ، من مثل ابن المقفع ، وأبي العنابية ، وأبي تمام ، وابن دريد ، وأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري ، وأبي الفتح البستي ، وابن الوردي .

● ابن المقفع (٧٢٤ - ٧٥٩ م) هو الأديب الشاب ، والحكيم الذي اشتهر بالعقل والتفكير ونفاذ البصر في الأمور . كان فارسياً وقد أراد أن ينقل إلى

لغة العرب حكمة الهنود وحكمة اليونان والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة ، فترجم كتاب « كليلة ودمنة » ، وجمع كتابي « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » وإنما سنحصر كلامنا في الكتابين الأخيرين لأنهما يدخلان في صميم موضوعنا .

تعنى لفظة « أدب » في نظر ابن المقفع التهذيب الخلقى والرياضة النفسية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أدبى ربى فأحسن تأديبى » . ولهذا أطلق ابن المقفع على كتابيه اسم « الأدب » لأنهما يتناولان أموراً أخلاقية في جوهرها . قال عبد اللطيف حمزة : « إن ابن المقفع يظهر فيهما كأنه معلم أخلاق ، يشرح هذه الأخلاق في كتبه شرحاً يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الدين . . . والخلق في رأيه أمر يتصل بالعقل قبل كل شيء ، والعقل يميز بين الحسن والقيبح ، يعرفهما بطبيعته وأولم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو أخلاق . . . وابن المقفع في كتابيه الأدبيين كان ناقلاً ومؤلفاً معاً . فهو ناقل لأنه كان حريصاً على أن يكثر من حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . يقول مرة : « احفظ قول الحكيم الذي قال » ، ويقول في أخرى : « وسمعت العلماء قالوا » ، ويقول في مرات كثيرة : « وكان يقال » وهكذا . . . وهو مؤلف لأنه كان يعمل عقله في ما ينقله ، وكان له في ما ينقله غرض يرمى إليه دائماً ^(١) » .

ويقول ابن المقفع في مقدمة الأدب الصغير : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عون على عمارة القلوب وصفاها ، وتجليه أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » . ويقول في الأدب الكبير إنه « لم يجد الأولين غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه . . . وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم . ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » .

وفي الأديين حكم شتى وأمثال مختلفة لا يربط بينها رابط ، وهي من مصادر مختلفة : فارسية ويونانية وإسلامية وغير ذلك .

أما « الأدب الكبير » فهو ما سماه صاحب الفهرست باسم « مافر حيس » وقد ذهب الأستاذان هوفان Hoffman وجوستي Justi إلى أن اسمه محرف عن « مه فراجو شناس » أي الأدب العالي والكبير . وفيه مقدمة تدور حول فضل الأقدمين على العلم وشروط درسه والغرض من هذا الكتاب ، ثم فيه قسمان : قسم في آداب السلطان أي في السلطان ومصاحبه وما يجمل بكل منهما من الخلال ، وقسم في آداب الأجماع أي في علاقة الناس بعضهم مع بعض . أما المقدمة ففادها أن خير ما يفعله الإنسان هو الاقتداء بالأقدمين والأخذ من علمهم والنظر في كتبهم لأنه « لم يبق في جليل الأمر ولا صغيره لقاتل بعدهم مقال » ، وأنه لا بد لطلاب الأدب من معرفة الأصول والفصول . « فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة . . . وأصل الأمر في صلاح الجسد ألا تحمل عليه من المأكول والمشرب والباه إلا خفافاً . . . وأصل الأمر في البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك بالإديار وأصحابك مقابون على عدوهم . . . وأصل الأمر في الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها . . . وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ . . . وأصل الأمر في المعيشة ألا تنى عن طلب الحلال ، وأن يحسن التقدير لما تفيد وما تنفق . . . » تلك هي الأصول فإن زاد عليها المرء إصابة الفصل فذلك أفضل كالتفقه في الدين والعبادة ، وعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك ، وأن يكون المرء أول حامل في الحرب وآخر منصرف من غير تضييع الحذر ، وأن يزيد المرء ذا الحق على حقه ويطول على من لا حق له ، وأن يأتى في الكلام بيارع الصواب ، ثم الرفق في المعيشة واللفظ في الطلب والعلم بوجوه المطالب . . . »

وأما القسم الأول من « الأدب الكبير » ففاده أن صاحب الإمارة ينبغي له أن يخصص معظم أوقاته بأعمالها ، وأن يجتنب المدح لأن « قابل المدح كمداح

نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له محمود ، والقابل له معيب . وعلى السلطان أن يجعل فى بطانته أهل الدين والمروءة ، وأن لا يعنى بغير المهم ، وأن لا يفرط فى الغضب ولا يتسرع فى الرضى وأن يحذر مما لم يبين على حزم من الأعمال ، وأن يتوثق من حسن رأى أعوانه ، وأن يحذر من الغضب والكذب والبخل وكثرة الخلف ، وأن يعمن فى تفقد أمر رعيته ، وأن يأخذ بالدين والبر والمروءة . . . وعلى مصاحب السلطان أن لا يفتخر باستثنائه ولا يكثر له التلميح ، ولا ينصرف إلى الإدلال عليه والاستزراء له . . . إلى غير ذلك مما يؤلف دستوراً فى ما يتعلق بالراعى والرعية وفى ما يجب عمله من الجهتين .

وأما القسم الثانى من « الأدب الكبير » فى معاملة الناس وفى آداب المعاشرة ، ومفاد ذلك أن المرء يجب أن يحذر من انتحال رأى غيره ، وأن يجعل الكلام فى موضعه ، ويتجنب الهزل والادعاء ، ويعامل عدوه بالعدل وصديقه بالرضى ، ويحسن اختيار الصديق ، إلى غير ذلك من الحض على الفضيلة واجتناب الرذيلة .
وأما « الأدب الصغير » فقسمان : قسم لتقديم الموضوع وقسم آخر للموضوع نفسه . أما المقدمة ، فيذكر الكاتب فيها حاجة العقل إلى الأدب ، وتأثير هذا الأدب فى إنماء العقل فيقول ، ويحسن التعبير فيما يقول : « فكما أذ الحبة فى الأرض لا تقدر على أن تخلع ييسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها ، إلا بمعونة الماء الذى يغور إليها فى مستودعها ، فيذهب عنها أذى اليبس والموت ، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل مكنونة فى مغرزها من القلب ، لا قوة لها ولا منفعة عندها ، حتى يعتملها الأدب الذى هو نماؤها وحياتها ولقاحها » . ثم قال : « إن الناس لا يبتدعون هذا الأدب لأنهم يروونه ويتكبرونه ، فإن أحدهم ، وإن أحسن وأبلغ ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائد ومموطاً وأكاليل ، ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيد به ذلك

حسناً». فالأدباء بهذا - في نظره - ليسوا أكثر من صاغة الذهب والفضة ، صنعوا فيها ما يعجب الناس من الخلى والآنية ، « وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة ، وسلكت سبلا جعلها الله ذلاً ، فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها ، مذكوراً به أمرها وصنعها » .

ثم ذكر الكاتب أن العقل لا يمكنه أن يستفيد من الأدب الذي يتغذى به إلا بستة أشياء :

أولها إثارة الأدب بالحبّة على كل شيء سواه .

وثانيها مبالغتك في طاب الأدب مدفوعاً بهذا الإيثار .

وثالثها تثبتك في تخير الأدب « فكم من طالب رشد وجدّه والغنى معاً

فاصطنى منهما الذي منه هرب ؛ وألغى الذي إليه سعى » .

ورابعها ثقتك بأن الذي استقر عليه رأيك سيعود عليك بالخير والنفع .

وخامسها حفظك لهذا الذي وقع عليه اختيارك ، لأن الإنسان موكل به الغفلة

والنسيان .

وأخرها وضعك هذا كله موضعه اللائق به .

ثم قال الكاتب : « وبنا إلى هذا كله حاجة شديدة . . . ولسنا إلى ما يمسك

أرماقنا من المطعم والمشرب ، بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به

تفاوت العقول . وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في

نبات العقل ^(١) » .

وأما مضمون الأدب الصغير فعالم من السمو والروعة التفكيرية ، ومداره على

تصرف العاقل في الحياة وعلى تهذيب نفسه لإحسان ذلك التصرف . ولكي يهذب

نفسه عليه أن يسلك طريقين : طريق اقتلاع المساوي بمحاسبة النفس ومخاصمتها

والقضاء عليها والإثابة والتنكيل بها ، وطريق اكتساب المحاسن بتفقد محاسن الناس

(١) طالع «ابن المقفع» لعبد اللطيف حمزة - ص ١٦٨ - ١٧٠ .

والسعى في الاقتداء بهم ، والاستشارة ، واختيار الأصحاب من ذوى الفضل والعلم والدين والأخلاق ، لأن هؤلاء وحدهم يستطيعون أن يساعدوا على إصلاح النفس .
وهناك أمور مختلفة تساعد على حسن التصرف منها : « أن لا يشغل العاقل شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه ، وينصحونه في أمره ، وساعة يجلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخرى » . ومن الأمور التي تساعد على حسن التصرف أن يقيس العاقل الناس بنفسه ، وأن يجعل الهوى خاضعاً للعقل .

ويعرض صاحب الكتاب للسلطان فيجمله خصاله في أربع ويقول : « على الوالى أربع خصال هى أعمدة السلطان وأركانها التى بها يقوم وعليها يثبت الاجتهاد فى التحير ، والمبالغة فى التقدم ، والتعهد الشديد ، والجزاء العتيد » . وهو يؤثر أهل المعرفة بالسلطان ويقول : « أحق الناس بالسلطان أهل المعرفة ، وأحقهم بالتدبير العلماء ، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله ، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً . . . » وهكذا يلتحق المؤلف بالفارابى صاحب « المدينة الفاضلة » ، وهكذا يوضح مراتب الناس فى تلك المدينة فى كلام مفصل غاية فى العمق .

ويعرض المؤلف للدين ويقم موازنة بينه وبين رأى ويقول : « فصل ما بين الدين والرأى أن الدين يسلم بالإيمان ، وأن الرأى يثبت بالخصومة . فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً . ومن جعل الرأى ديناً ، فقد صار شارعاً . ومن كان هو يشرع لنفسه الدين ، فلا دين له » .

ومن جملة الأمور التي يعرض لها صاحب « الأدب الصغير » الدلائل على معرفة الله وسبب الإيمان فيقول : « مما يدل على معرفة الله وسبب الإيمان أن يوكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغير أو كبير عيناً : فهو يصرفه ويحركه . فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك ، فلينظر إلى السماء فسيعلم أن لها رباً يجرى فللكها

ويدبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة الخردل فسيعرف أن لها مدبراً
ينبتها ويزكيها ويقدر لها أقواتها من الأرض والماء ، يوقت لها زمان نباتها وزمان
تهشمها ، وأمر النبوة والأحلام وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون ،
ثم يظهر منهم بالقول والفعل ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على
ذكر الله وتعظيمه ، واجتماع من شك في الله وكذب به على الإقرار بأنهم أنشأوا
حديثاً ، ومعرفة أنهم لم يحدثوا أنفسهم . فكل ذلك يهدى إلى الله ويدل على
الذي كانت منه هذه الأمور ، مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بأن الله حق
كبير ولا يقدر أحد على أن يوقن أنه باطل .

وهذا ، كما لا يخفى ، من صميم الفلسفة الأرسطاليسية المصبوغة بالصبغة
المسيحية والإسلامية . وهذه بعض البراهين على وجود الله : السببية والحدوث ،
ونظام الوجود ، واجتماع رأى الناس على ذلك منذ بدء الخليقة إلى اليوم ، وغير
ذلك مما عبر عنه المؤلف أو لمح إليه .

ومن ثم يتضح لنا أن الأدبين الكبير والصغير من ذخائر الحكمة البشرية ،
وأن الحكمة فيهما قائمة على أساس عقلي لا يخلو من صبغة دينية ، وأنها من ثم ذات
نزعة فلسفية عميقة المرى ، بعيدة الأغوار ، وأنها عميقة العلم بالنفس البشرية
ونزعاتها المختلفة ، وبالسياسة البشرية والاجتماع البشرى ، وأنها ذات نزعة مثالية ،
و ذات نزعة تشاؤمية ؛ جاء في « الأدب الصغير » ما يلي : « الناس — إلا قليلاً —
من عصم الله — مدخولون في أمورهم : فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم
متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير
سليم من الاستخفاف ، والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الحياة ، والصدوق
غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة ،
والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر . . . » وكم في هذا الكلام من تشاؤم !

وأسلوب الأدبين هو الأسلوب الخطابي التعليمي ، هو أسلوب المعلم الحكيم ،

أسلوب المشرع الذى يسن للوجود قوانين وديساتير ، أسلوب فلاسفة الأخلاق الذين يتكلمون من عل ، ويعالجون مشاكل البشر فى خبرة وحنكة وبصيرة .

● أبو العتاهية (٧٤٨ - ٨٢٥ م) هو الشاعر الذى لبس الصوف وتزهد ، والذى فلسف الزهد ودعا إليه بإلحاح وبرهان ، ومما قاله فى ذلك :

اسدك بُنى مَنَاهِجِ السَّادَاتِ وَتَخَلَّقَنَّ بِأَشْرَفِ الْعَادَاتِ
يتجلى لنا أبو العتاهية من زهدياته رجلاً ميالاً إلى الزهد ، عاكفاً عليه بكلّ جوارحه . لقد عرف من الحياة حلوها ومرّتها ، ورأى أنّ طبيّاتها لا تدوم . وقد خبر القلوب فوجدها قلوباً تتقلب مع كلّ حال ، وتدور مع كلّ هوى ، وخبر الناس فوجدهم أتباع منافعهم ورغباتهم ، فصدف عن الدنّيا وترهّاتها ، وراح فى صُفوف البشر رسول خير ولسان موعظة وعبرة ، بل راح فيلسوف زهد يعمل ويقول . وربما كان فى قوله بعض الأثر ، ذلك أنه فى عصر الفسق ، وزمان الانحطاط الأخلاقى ، أراد أن يكون صوتاً ناشزاً يلفت أنظار رجال الدين وأصحاب التزمّت ويبنى من وراء قوله قصراً من الشهرة وحسن النظر . ثمّ إنّ أبا العتاهية قد تردّد أحياناً بين الغزل والزهد ، وكان ذا شخصية ضعيفة متذبذبة لضعف فى إرادته وخور فى همته . وعلى كلّ حال فقد نصب نفسه للهداية وكان عمله جليلاً .

أظهر أبو العتاهية فى زهدياته ازدراءً للحياة جمعاً ، وقد لفها بغشاء كالحق السواد من شأنه أن يبعث على اليأس والقنوط ، إلاّ أنه على تشاؤمه ، قد أسدى إلى الناس نصحاً ذا قيمة حقيقية ، ووجه كلامه إلى عقولهم مقدّماً لها البراهين والحجج ، غير مكتفٍ بأساليب الأقدمين الاختيارية ، فهو فى عصر فلسفة وتفكير ، وهو فى عصر علم وجدل ، وهو فى عصر نصب فيه للعقل عرش رفيع . وقد استقى أفكاره من الكتب الدينية ونظريات الفلاسفة

كما استقاهها من عالم التجربة والاختبار . وراح يدعو إلى القناعة لأنّ الدنيا دار فناء . والآخرة خير منها ، فما يُبْنَى يُبْنَى للخراب ، ومن يُوَلد يُوَلد للموت ، وما يُجْمَع يُجْمَع للتفريق ، وما يُعْنَى به من أمر الجسد آخرته الفناء ، وما يُضْحَك لا يُضْحَك إلاّ ليكفى ، فعلى الإنسان أن يعيش كمن سيموت ، يكتفى بالضرورى ويتسلح بالتقوى ، وهكذا يتأهب للآخرة ، ويذخر لنفسه أجراً عند الله .

وأسلوب أبي العتاهية في زهدياته هو أسلوبه في أكثر شعره ، هو سهولة وسلاسة وانسجام ، وهو عذوبة وموسيقى ساحرة ، وهو تفجرٌ وطبيعة ، وهو تدفق شاعرية ، وانطلاق خيال ، وليس هنالك من غثائفة أو برودة أو جفاف كما نجد ذلك في الشعر التعليمي عامة ، وكما كان يُتَنظَر من شاعر كتب الكثير في هذا الباب . وقد مزج أبو العتاهية زهده بشيء من العاطفة العميقة التي تدغدغ أوتار النفس وتترك في عالمها صدى بعيداً . وهكذا كان أبو العتاهية مجدداً في باب الزهد إذ فلسفه وصاغه بقلب سهل ممتع .

● أبو تمام (٧٩٦ - ٨٤٣ م) هو شاعر المعاني وقد امتاز بذكاء حاد نادر ، كلف بتقصي المعاني والنزول إلى أعماقها ، وقد صادفت هذه النزعة فيه موافقةً من حالة عصره العقلية وتشجيعاً ؛ فقد فرغ من نقل طائفة حسنة من كتب الفلسفة والمنطق ، عن اليونانية ، فأقبل على استيعابها بشغف ، وأفاد منها ثقافة لم يكن لأدباء العرب عهد بمثلها من قبل ؛ وقد ظهرت آثار تلك الثقافة في شعره ، فكثرت المعاني الجديدة ، والأدلة العقلية ، واثتمام المنطق في التفكير والتأليف . بل أصبح التوفر على المعاني من أميز صفات أبي تمام ، في عامة أبواب شعره ؛ فهو قلما ينقاد في نظمه إلى إيماءات عابرة ، أو يرضى بما تأتي به من خواطر بديهية . ومن ثم امتازت أفكاره بالابتكار وبعد مطارح النظر ، لأنها ثمرة تأملات عميقة أحاطت بالمعاني من جميع نواحيها ، وبلغت أقاصيها .

وقلما يكتفى أبو تمام بعرض المعنى الطريف عرضاً سهلاً كما يتبدى له ، بل يذهب في تعليقه المنطقي حتى يبيديه راسخاً وطيداً ، بريناً من كل تقلقل . وذلك ظاهر كل الظهور في كثير من آرائه وحكمه التي يعبر عنها غالباً في بيتين ، يعرض في الأول لخاطره ، ويأتي في الثاني بمثال أو برهان يدعمها به ، فيقول مثلاً :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ قَضِيْلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسْرَدٍ
لَوْلَا أَشْتَعَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عُرْفِ الْعُودِ (١)

ولأبي تمام جملة من مثل هذه الخواطر الطريفة المحكمة، المعروفة بالحكم، وهي جارية على الألسنة ، يتمثل بها في مختلف الأحوال وتقوم دليلاً جليلاً على قوى الشاعر العقلية ، وجمال معانيه .

ومن آيات براعته المعنوية أيضاً ، طائفة من النظرات في النفس والحياة ، والإرشادات الأدبية لا يقتصر فيها أبو تمام على الخبرة البديهة ، بل يعتمد إلى الثقافات العريقة المنقولة ، يقتبسها ، ولا يرسل آراءه إلا بعد اختبار محترم ، وتأمل شخصي طويل . ويجمل آرائه : أن العقل فخر رفيع ، لا يتسنى إلا لأفراد قليلين :
وَلَيْسَ يُجَلَّى الْكَرْبَ رُمَحٌ مُسَدَّدٌ إِذَا هُوَ لَمْ يُؤْتَسَّرْ بِرَأْيِ مُسَدَّدٍ (٢)

ومع هذا فالدهر حوان يسعد الجاهل ، ويشقى الحكيم ؛ ولكن ليس على الحكيم أن يبتئس ، بل عليه أن يصبر على معاكسات الدهر ، ويبدى إزاءها شدة وتفوقاً وحلماً ، فهذا أعظم سلاح وزاد ؛ والحكيم لا يكفيه عقله ، بل يلزمه المال للقيام بمقتضيات شخصيته ، والمال يجتنى بالسفر الذي يكسب فوق ذلك اتساع الخبرة وتجديد الشخصية :

(١) عرف العود : رائحة الطيبة .

(٢) يجل : يذهب . لم يؤتس : لم يصحب . الرأي المسدد : المصيب .

الصَّبْرُ كَأْسٌ وَيَبْطُنُ الكَفُّ عَارِيَةً وَالْعَقْلُ عَارِ إِذَا لَمْ يُكْسَرَ بِالنَّشْبِ؟^(١)

إلا أنه ليس لذلك كله قيمة بالنظر إلى زوال الدنيا .

وعلى الجملة ، فالشاعر ، في أبي تمام ، هو ذلك المتأمل المتبصر ، الكثير الاحتفال بالمعاني والكثير العناية بها ، إلى حد يتعقد معه الشعر وتفسد موسيقاه . فهو يتكلم إلى العقل المتبصر قبل كل شيء ، ويطبغ بسمة عقله جميع عناصر شعره حتى العاطفة والخيال .

ولسنا ننكر ما لأبي تمام من الساقط في أفكاره ، فإنه كان ينحط في بعض منها إلى دركات لا تليق بعقيرته ؛ ولعل ذلك متأت عن أنه لم يستطع الاحتفاظ دائماً بالتوازن في تفكيره ، أو أنه لم يتمكن من استساغة جميع ما وعاه من الثقافات والعلوم التي ألم بها . إلا أن اعتماد التفكير في شعره ، وما أتاه من معان جميلة لا تكاد تحصى ، كل ذلك جعل له محلاً فريداً بين شعراء عصره . فكان رجل الطليعة الذي شق الطريق ومهد لها لمن سيأتي بعده من شعراء المعاني .

● ابن دريد (٨٣٧ - ٩٣٣ م) من علماء القرن التاسع وله قصيدة مشهورة تقع في نحو مائتين وثلاثين بيتاً وتعرف « بمقصورة ابن دريد » ؛ وقد وصف فيها حاله ورجيله إلى فارس وضممها شتى الفنون الشعرية من مدح وفخر وشكوى ووصف وأمثال وحكم . ونحن لا يهمنا هنا إلا الأمثال والحكم . وهذه خلاصتها وهذا رأينا فيها .

ابن دريد رجل يقدم في قصيدته بعض الحقائق البسيطة التي يعرفها جميع الناس والتي لا تخرج عن نطاق الحياة العادية . فهو يرى أن الناس لا يميلون إلا إلى القوى وإلى السخى فيجمل فكرته وخبرته في قوله :

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحَامَوْا ظُلْمَهُ وَعَزَّ فِيهِمْ جَانِبُهُ وَأَحْتَمَى

وهم لِيَمَنَ لَان لَهُم جَانِبُهُ أَظْلَمُ مِنْ حَيَاتِ أَنْبَاثِ السُّفَا^(١)
 وهو ينتكر لليأس في الأعمال وللكبرياء في معاملة الناس ، وهو يرى أن الإنسان
 بما يعمل لا بما يقتنى :

وللفتى من ماله ما قَدَمْتُ يَدَاهُ قَبْلُ مَوْتِهِ لَمَا أَقْتَنَيْتِي
 وهو يرى أيضاً أن آفة العقل الهوى وأن خير ما يتركه الإنسان بعد الحياة
 حديث حسن :

وإنما المرء حديثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِيَمَنَ وَعَى
 وهكذا يمضى ابن دريد في مقصوده مفصلاً آراءه في غير روعة شعرية ،
 وفي غير عمق وابتكار شديد

● أبو الطيب المتنبي (٩١٥ - ٩٥٦ م) شاعر سيف الدولة ورجل القوة
 والطموح . احتك بالقرامطة فاتخذ عنهم حب الثورة والميل إلى انتفاضة العنقوان ،
 واحتك بالأمراء وذوى الأمر والسلطان فذاق مرارة الخيبة ، وسعى وراء العظمة
 والمراتب العالية فعرف حطمة الطموح ، وحسده الناس وآلموه فكان صدره بركاناً
 ينفث حمماً ونييراناً ، وقال شعراً فكان شعره ترجمان قلبه الطموح وقابه الساخط ،
 وكان حافلاً بالحكم والأمثال . وقد جمع تلك الحكم والأمثال الصحاح بن عباد
 لفخر الدولة البويهى . ونشرها « زهدى يكن » بعد أن شرحها وضبط ألفاظها
 وعلق عليها ، وهى كثيرة نجمل الكلام فيها فنقول :

لم يكن المتنبي فيلسوفاً بمعنى الكلمة الصحيح ، إذ ليس له آراء شاملة في
 أصل العالم أو الحياة أو الأخلاق ، يقوم عليها نظام من الفكر متصل ، متماسك ،

(١) أنباث السفا : أى التراب .

وإنما له خطرات في الحياة والأحياء ، مثورة هنا وهناك لا يجمع بينها سوى نفس الشاعر والحو الذي يسبح فيه ويتشربه . وهو لا يتوفر على تعليل هذه الخطرات ودعمها منطقيًا بتؤدة وإسهاب شأن الفلاسفة ، ولكنه شديد الاعتقاد بها ، شديد الإثبات لها ، وكثيراً ما يدعمها بصورة مؤثرة ، أو دليل موجز يقران صحتها في نظره ، بقوة جازمة . وهو كثيراً ما يأتي بحكمه وأمثاله لإيضاح فكرة أو للبرهان عليها .

أما مصدر حكمة المتنبي فهو قبل كل شيء نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا دراسة الفلسفة ، أو التأمّلات في ما وراء الطبيعة ، ووراء الزمان والمكان ، وإن كان قد استقى أحياناً بعض حكمه مما وصل إليه من نظريات اليونان وآرائهم ، وبما أطلعته عليه ثقافته .

ولما كانت نفسية الشاعر مقطورة على القوة والاعتداد والطموح ، كانت فلسفته تعظم القوة وتقديسها ، وتضحى بكل صغير ضعيف في سبيل كل كبير جبار ، مترفع عن الدنيايا ؛ ولما لم يصادف طموحه سوى المعاكسات والإخفاق أغرق في التشاؤم ، والنقمة على الزمان ، لأنه لم يسعفه ، وعلى الناس لأنهم لم يحققوا أمله ، فلو كهم لا يستحقون الملك ، والشعب يرضى بالملاهى والبؤس ، ويقيم على الذل .

إن فلسفة المتنبي ، على الإجمال ، فلسفة الأمل الطامح المؤمن بالقوة ، والأمل الخائب المثقل بالنقمة والثورة والتشاؤم .

قلما تعرض المتنبي لنظريات في مبدأ العالم ومنتهاه ، وإنما صرف همه إلى الإنسان في حياته وأخلاقه وعواطفه وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها ، فجال فكره بين الحياة والموت ، والقوة والضعف ، واللذة والألم ، والنيل والحرمان ، وما إلى ذلك ، وتناولت حكمه سنن الحياة وصروفها ، مهملة مصادرها ومصايرها .

الحياة : الحياة في نظر المتنبي مسرح من مسارح تنازع البقاء ، بل هي

ساحة حرب ، وميدان جهاد ، لا يفتأ الناس فيه متجالدين من غير ما رحمة ولا هودة ، فلا يثبت غير القوى ولا يفلح سوى الشجاع الذى لا يهاب :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سَبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَأَغْتِيالاً (١)
مَنْ أَطَاقَ التَّمَامَ شَيْءٌ غِلَاباً وَأَغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُرّاً (٢)

والحياة دار فناء لا يدوم فيها نعيم ولا تثبت فيها حال ، والناس فيها أفواج
إثر أفواج ، بين الوجود والفناء :

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضاً ، وَتَمَشَى أَوْاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

ولكن الحياة ، على ما فيها من سرعة زوال ، وقصر يعتوره الاضطراب
والأوصاب محببة إلى كل إنسان يتعلق بها تعلقاً وثيقاً :

وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفُسٌ فِي النَّفْسِ حَسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُعَمَّلَ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفْ فَمَا مَلَّ حَيَاةً ، وَإِنَّمَا الضَّمْعُ مَلًّا

أما الموت فهو أمر لا بد منه ، محتوم على كل حى ، لأن الحياة من كسب
الزمان ، والزمان لا شك مطالب بها ، والأجسام من تراب الأرض ، وسوف تستعيد
الأرض ما أخذ منها ، ولذلك ينبغى ألا نجزع أمام الموت وأن نستقبله كأمر
محتوم :

نَحْنُ بَيْنَ الْمَوْتِ فَمَا بَالُنَا نَعَاثُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبَخَّلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ

(١) الأنيس : هنا الأنس ضد الوحش . السباع ج سب وهو كل حيوان مفترس . الاغتيال :

أخذ الإنسان من حيث لا يدرى .

(٢) غلاباً : أى مغالبة .

فهذه الأرواح من جوره وهذه الأجسام من تربيته
الدين : يظهر أن المنتبي أهمل الجانب الديني من الحياة إهمالاً لا يكاد يكون
تاماً ، وظل ، بالنظر إلى الخلود ، في شبه شك أو لا معرفة . وقد كان ، في
العموم ، واهى العقيدة الدينية ، يلم بكثير من النحل الشائعة في عصره ، من غير
أن يعتقد بوحدة منها ، وإنما يأتي على ذكر بعضها في شعره كالعلوية ، والمناوية
أصحاب الثنوية ، والمجوس ، مجارة لمألوف سائر الشعراء أو مجارة للممدوح .
ولكننا ، وإن ضعفت عقيدته الدينية وكثر استخفافه بالدين ، لا يمكننا أن نرميه
بالإلحاد والزندقة ، فإننا نلمس فيه حمية دينية ، وزعة إسلامية ، ولاسيما في عهد
سيف الدولة ، بسبب حروب العرب مع الروم ، ونسمعه أحياناً يصرح بأنه
لا يخضع مخلوق مطلقاً ، إنما خضوعه لله ، الذي له التصرف المطلق في الكون ،
وهو الملحوظ في كل فعل وحركة . ولكن ذلك لا ينفي قلة التفات المنتبي إلى الدين .
الزمان : إن الزمان - أو الدهر - علو الأحرار وكرام النفوس ، في نظر
المنتبي . هو الذي يقسم الحظوظ والمواهب على الناس ، ولكنه مطبوع على
الجور ، يمنع التقاء العقل والحظ ، وينهك أبدأ حرمة العقل فلا ينيله ما يحق له
من التكريم والسلطان :

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدَيَّ بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا^(١)

وقد بلغ المنتبي من حنقه على الزمان أن اعتبره غريباً حياً يطارده ويعاكسه .
أما الناس - والمنتبي ينظر خصوصاً إلى أهل زمانه - فهم في هوة من
الصغارة والهوان ، مجردون من كل خلة حسنة ، ولا يستأهلون إلا الاحتقار :

أَدُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ^(٢)

(١) الجد : الحظ .

(٢) القدم : قليل الفهم . الوغد : الأحمق .

وَأَكْرَمَهُمْ كَلْبٌ وَأَبْرَصَرُهُمْ عَمٌ . وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدٌ^(١)

• • •

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا^(٢)
فَلَمْ أَرَ وَدَّهْمٌ إِلَّا خِدَاعاً وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلَّا نِفَاقاً

وهذه الأخلاق التي فطر عليها الناس ، ثابتة فيهم ، لا يستطيعون عنها تحولا
تصرف اللبيب : تلك صورة الكون التي تمثلها المتنبي . وهو يرى أن العاقل
من أقبل على الدنيا كما هي ، مهملًا ملاهى اللذة ، مسلحاً نفسه بالقوة ، فلم
يرتح إلى صديق ، - فإنه ليس من صديق - بل عول على نفسه ، وطلب المجد
في أسنى أشكاله :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ^(٣)

مضحياً في سبيله أجل التضحيات ، غير متييب شيئاً حتى الدم والموت ، لأن
النكوص والخبث ذلة واستكانة وحرمان ، في حياة تمضي ولا تعود .

وعلى العاقل أن يحذر الناس ، فلا يتكل على أحد ، ولا يشتكى إلى أحد .
ولا يرحم أحداً ! وعليه أن يتصلب فلا تغره دمعة باك أو بشاشة مبتسم ، عالماً أنه
ينال من الدنيا بالهول ما لا ينال بالرفق :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رُمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ

تلك سنة الحياة : ازدراء للناس والزمان ، وطموح إلى مجد رفيع ، لا تنيله

(١) عم : أعمى . أسهدهم : أيقظهم . فهد : يشبه به في كثرة النوم .

(٢) يقول : أنا أعرف المجربين بأحوال الناس ، فإن كان غيري بعد ذاتناً لهم فإنني قد

كررت ذوقهم حتى صرت آكلاً .

(٣) غامرت : دخلت في الغمرات وهي المهالك . وقوله : في شرف ، أى في طلب شرف .

إلا القوة أو الحيلة ، وهي نوع من القوة . والقوة أصل الأخلاق والفضائل ، ومحور الحماد والمناقب ، وعليها أن تنقلب بطولة ، لا يشوبها أدنى ضعف ، لأنه :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِيَجْرَحَ بِمَيِّتٍ إِبْلَامُ (١)

وإذا تعود المرء الهوان ، لم ينل من الدهر غير الهوان إذ « لكل امرئ من دهره ما تعودا » . وقد يكون الموت نتيجة هذه البطولة ؛ وما هم ، فالحياة البسيطة غير جذيرة بالعيش ، والموت لا بد منه ، فلتحفل الحياة بالشجاعة والقوة ، ولتزه نهايتها بالشرف ولو دامياً !

ليس أبو الطيب من ذوى الحيرة والتردد في آرائه ، شأن أبي العلاء ، فهو يجزم في خواطره حتى الغريبة منها ، كأنه يسن شريعة ؛ ويعتمد على فكره اعتماداً شديداً مطلقاً .

وقد بلغ في نظم آرائه أرقى غاية في التعبير ، ففاق شعراء الحكم جميعاً في الجمع بين القوة والإيجاز والإحكام ، فجاءت أبياته عذبة بليغة ، تنبض حياة وقوة ، وتشمل آفاقاً شاسعة ومعرفة عميقة للنفس الإنسانية ، لقتته إياها الآلام والأسفار والتجارب الواسعة ، فاستطاع — كما قال الشيخ إبراهيم اليازجى — أن « ينطق بألسنة الحدثان ويتكلم بخاطر كل إنسان » . زد على ذلك تعاليم أخلاقية سامية تلقن الترفع عن الدنيا ، والصبر أبداً إلى كل رفيع ، والإقدام الجريء الذى يحطم كل صعوبة ولا يحجم عن عظيم . وهكذا جاءت حكم المنبى ، في قسم كبير منها ، قيماً إنسانية رفيعة تسمو إلى مرتبة الشعر الخالد .

إلا أن هنالك بعض الآراء التى ينقصها الاتزان . فقد كان الشاعر ، إبان شبابه ، مهوراً في حب الثورة والدمار ، وطلب الآمال الخيالية التى لا قرار لها ولا سبيل إلى تحقيقها ، ثم هبطت ثورته أثناء كهولته . إلا أن بعض آرائه اتسم إذ

(١) يقول : من كان هيناً في نفسه لا يستصعب ورود المران عليه فهو كالميت الذى لا يتألم بالجراسة .

ذلك بلون من التشاؤم كثيف ، يزيد به ضعف العقيدة الدينية ظلاماً .
ولكن الحواطر التفتت إلى الجانب الصالح من حكم المتنبي دون الباقي ،
فسار على الألسنة ، في كل عصر وكل بلد ، وقد وجد الناس فيه الفكرة الصادقة
العميقة الجميلة في التعبير البليغ الموجز المحكم .
ولقد كانت مواطن كثيرة من حكميات المتنبي نواة لفلسفة أبي العلاء ،
أكسبها المعرى اتساعاً وإسهاباً ، ولكنه أفقدها روعة أصلها .
وهناك طائفة كبيرة من حكم المتنبي وأمثاله تناولت موضوعات شتى وعبرت
عن آراء مختلفة يصعب تبويبها ، وهي ترجع في أكثرها ، من قريب أو بعيد
إلى ما قدمنا وإليك بعضها :

صبراً بنى إسحق عنه تَكْرُماً إِنَّ الْعَظِيمَ عَلَى الْعَظِيمِ صَبُورٌ^(١)

• • •

فَمَوْتِي فِي الْوَعَى أَرَبِي لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَيْشَ فِي أَرَبِ النُّفُوسِ

• • •

لَوْ كَانَ سُكْنَايَ فِيهِ مَنْقِصَةٌ لَمْ يَكُنِ الدَّرُّ سَاكِنَ الصُّدْفِ^(٢)

• • •

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بَرَكَ لِي وَالْجُوعُ يُرْضَى الْأَسْوَدَ بِالْحَيْفِ

• • •

يَقْدِرِي بَنِيكَ عُبَيْدَ اللَّهِ حَاسِدُهُمْ بَعْبَهَةَ الْعَيْرِ يُفْدَى حَافِرُ الْفَرَسِ^(٣)

(١) قاله في رثاء محمد بن إسحق التتويحي .

(٢) قاله في حجة بجمصر .

(٣) قاله في هيبه الله بن خراسان .

وَأَصْبَحَ يُغْرَى مِنْهُمَا فِي مَكَانِهِ فِي عُنُقِ الْحَسَنَاءِ يُتَحَسَّنُ الْعِقْدُ (١)

•••

وَمَنْ يَكُ ذَا قَمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

•••

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حِجَّةٌ لَاجِيٌّ إِلَيْهَا اللَّثَامُ

•••

لَا يُعْجِبُنْ مَضِيماً حَسَنُ بَزْتِهِ وَهَلْ تَرَوْقُ دَفِيناً جَوْدَةَ الْكَفَنِ

•••

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذْمُوقٌ مِنْ نَاقِصٍ فِيهِ الشَّهَادَةُ لِي بَأَنِّي كَامِلٌ

•••

وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَبِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُبْهَرُمُ

•••

أَفْعَالٌ مِنْ نَلْدِ الْكِرَامِ كَرِيمَةٌ وَقَعَالٌ مِنْ تَلْدِ الْأَعَاجِمِ أَعْجَمٌ

•••

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي وَلَا مِثْلُ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ

•••

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنْ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

•••

(١) من قصيدة ملح بها الحسين بن علي الهمداني .

وإطراق طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمَطْرُقٍ .
وهكذا إذا تصفحنا ديوان المتنبي نجده حافلاً بمثل هذه الحكم والأمثال التي ترافق جميع أطوار الحياة وأحداثها ، والتي توضح خفاياها ومكوناتها ، والتي تصدى لكل نفس وكل قلب في غمرة الوجود . وهكذا كانت حكمة المتنبي لكل زمان وكل مكان ، ولكل حالة من الحالات . يتمثل بها كل إنسان ويجد فيها تعزية في الحزن ، وقوة في المصائب ، وهمة لركوب المخاطر ، وهكذا كانت حكمة المتنبي من رفيع الشعر الإنساني الخالد .

● أبو العلاء المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٨ م) هو الشاعر الكفيف الذي انكفأ في ذاته على الوجود يتفهمه ، ويحمله من خلال ظلمة عماء . وإن له في شعره حكماً كثيرة ونظريات واسعة النطاق .

نفس كبيرة في جسم هزيل ، وقاب لا يسعه العالم تحت ثياب الضعة ، وبصيرة نافذة وراء ستار العمى ، وعقل بحاث في قيود السجن الجسدي يحاول أن يستجلي الحقائق ويقف على مكونات الوجود ، ذلك كان أبو العلاء المعرى في ديوانه الشعري ، فهو رجل تفكير وتقليد وتركيب . وهو إن مدح أو رثى أو فخر أو وصف ، متوكئ على معاني من سبقه ، جاد في تصيد صورهم وتركيبها تركيباً علائقياً فيه تضخيم وتجسيم وتمثيل وواقعية حسية . وأبو العلاء في شعره متشائم ، إن فكر في حقيقة الحياة والموت اندفع مبالغاً في وصف الزوال وذكر المآل ، وإن فكر في عاهاته ولؤم الناس تعالى متطاولاً في لهجة خدارة تنبعث فيها شخصية قوية لا تقبل رداً للحكم أو اعتراضاً على برهان .

وقد حاول أبو العلاء أن يخلص فلسفة الحياة بديوان ضخم يدعى «اللزوميات» . واللزوميات ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو اللزوم ، ديوان شعر كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوه الأربعة^(١) من ضم وفتح وكسر

(١) قال المعرى في آخر مقدمة الكتاب : « هذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر -

وسكون ؛ وهذا الديوان يحتوي على نحو أحد عشر ألف بيت وكله فلسفة واعتبار ونقد للحياة . وسمى كذلك لأن صاحبه التزم قبل الروى حرفاً إذا غير لم يكن محلاً بالنظم . وقد نظمه الشاعر بعد عودته من بغداد ، إذا اكتملت شخصيته . وطبعت اللزوميات بالهند سنة ١٣٠٣ هـ ، وبمصر سنة ١٨٩١ - ١٨٩٥ م . اللزوميات تمثل حياة عقل أبي العلاء ووجدانه وخلقه تمثيلاً صادقاً . وهي تحتوي على آراء الرجل التي كان يأتي بها إلى طالبي العلم . فقد كان المعري شيخ مدرسة يأتي إليه طلاب العلم من كل فج وصوب ، فكان يعالج قضاياهم ويهذب نفوسهم وأخلاقهم ، ويعلمهم نظرياً وعملياً ، ومصدر نظرياته عقله ، ومعتبر علمياته جسده النحيل الذي قسا عليه . وهكذا كان المعري لمريديه وقاصدي فضله واعظاً باللسان والمثل ، يطبق علمه على عمله .

وإننا لا نستطيع أن نعد آراء أبي العلاء فلسفة بالمعنى الحصري ، ولا أن نعد صاحبها فيلسوفاً بالمعنى الدقيق لأنه لم يكن صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا ، ولم يبتكر شيئاً في الفلسفة يعد رأياً له خاصاً أو مذهباً خاصاً . فإن آراءه مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها ، أو تأملات في الحياة ترجع إلى ما لقي من تجارب وأحداث انتهت عنده كما انتهت عند غيره إلى أفكار عامة . ويذهب الأسناذ «مارون عبود» إلى أن كتاب اللزوميات هو كتاب المذهب الفاطمي ، وأن أبا العلاء صورقيه للنامس شخصية الحاكم^(١) وخصاله من حيث لا يدرون ، وأيد

فصلاً ، لكل حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروى من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف وحدها فلها فصل واحد لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو القطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق .

والذي ينعم النظر في فصول الكتاب يرى أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبجر عند العروضيين : فالبحر الطويل في الفصل مقدم على غيره ، والمتقارب مؤخر عن غيره ، والأبجر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا أن المؤلف استوفى في كل فصل الأبجر الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

(١) الحاكم بأمر الله (٩٨٥ - ١٠٢٠ م / ٣٧٥ - ٤١٠ هـ) من خلفاء الدولة الفاطمية

فيه مذهباً ، ووضع في شعره طريقة ، فكانت آراؤه نوعين : نوعاً مستمداً من الاختبار الإنساني ، وهو ما يطلق عليه اسم الفلسفة العامة ؛ ونوعاً يتجه اتجاهها معلوماً ويعبر أو يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين ^(١) . أما التناقض الذي يوجد في آراء أبي العلاء فما هو ، في نظر الأستاذ مارون عبود ، إلا سخرية أو « تقية » في عصر كانت فيه كلمة « علم الأوائل » تقضى على الرجل .

إلا أننا نرى أن الأخذ بالتيقة لا يمكنه أن يفسر التناقض والحيرة اللذين يحفل بهما كتاب المعري ؛ ونرى أن أبا العلاء عقل كبير لم يملك زمام الذاكرة والعاطفة بالتعمق في ما سمع من الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، فأخذ من كل مذهب بطرف وتأثر تأثراً عميقاً بالفاطمية ، وكان في الحقيقة كما قيل « لمام فلسفة يجمعها من هنا وهناك » وقد تناول بنوع خاص كليات المنبئ الفلسفية وبسطها فكان بذلك « مكبراً فوتوغرافياً » لصور شاعر سيف الدولة ؛ كما تناول آراء المعتزلة والفاطمية وغيرهما ، وزاد على ذلك اختباراته ، ونصب نفسه معلماً ينثر الآراء سواء أكانت صائبة أم فاسدة ، مفرقاً في الحيرة والردد ، جاداً تارة وهازلاً سآخرأ تارة أخرى ، تؤثر العاطفة المتألمة في عقله فتطبعه بطابع النشأوم . وإليك خلاصة آراء المعري :

١ - العقل : أعلى أبو العلاء شأن العقل متبعاً في ذلك رجال الفكر في عصره ، فكان العقل عنده الإمام الفرد والنبئ الذي يرشد إلى الحقيقة :

— بمصر . كان جواداً سفاكاً للساء . وكان يشتغل بعلوم الفلسفة ، وينظر في النجوم ، وقد اتخذ بيتاً في المقطم يتقطع فيه عن الناس . ودعا إلى تأليهه ، ففتح مجلداً تكتب فيه أسماء المؤمنين به ، فاكتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلهم يخشون بطشه . وفي سيرته تناقضات كثيرة : يأمر بالشيء ثم يعاقب عليه ، ويعيل مرتبة الوزير ثم يقتله . . .

(١) قال الأستاذ مارون عبود : « الفاطمية مذهب فلسفي ، وقد أصبح أبو العلاء فيما أثبت وقرر في الزوريات شيخها الأعظم وإمامها الباق ، فهو لم يدع شيئاً يعني " المستجيب " إلى هذه الدعوة إلا ذكره له وفنده . وهو لا يقرر القضية مرة ويرتبين بل يعالجها في كل أبواب كتابه . » . ويمتد الأستاذ أن أبا العلاء لم يسافر إلى بغداد إلا لأجل التحكن من مذهب .

كذبَ النَّاسَ لا إمامَ سِوَى الهِ قَل مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالْمَسَاءِ

• • •

أَيُّهَا الْغُرُّ إِنْ خُصِمْتَ بِعَقْلِ فَاسْأَلْنَهُ فَكُلُّ عَقْلٍ نَبِيٌّ

وقد أراد أبو العلاء أن يحكم العقل في كل شيء ، ولكنه اضطرب في ذلك التحكيم ولم يكن له من الفلسفة العميقة والعلم الراسخ ما يوضح له معالم طريقه فتقلب كثيراً حتى وصل مرّة إلى أن الإنسان لا يرى الحقيقة بعد أن أثبت أن العقل نبي :

أَمَّا الْيَقِينُ فَلَا يَقِينَ ، وَإِنَّمَا أَقْصَى اجْتِهَادِي أَنْ أَظُنُّ وَأَحْدُسَا (١)

٢ - الطبيعيات : قال المعري مع علماء القدم بالعناصر الأربعة : النار والماء والتراب والهواء ، واضطرب في مسألة قدم العالم ، فأثبت القدم حيناً وأنكره حيناً آخر :

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُودَ النُّجُومِ وَلَا مَذْهَبِي قِدَمَ الْعَالَمِ

والمعري يرى أن عالم الكواكب يعمل في العالم السفلي بكل ما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، وأنه لا بد من إعظام الكواكب لأن الله عظمها .

وهو يرى أن الجسم وعاء دنس للنفس ، وأن النفس تحب الموت ولا تخافه وهي تظهر بترفها عن الجسد . وقد اتخذ المعري في ذلك آراء أفلاطونية وغير أفلاطونية ولكنه لم يحسن تمحيصها . ودان بالجزرية وقال : إن الإنسان يولد مكرهاً ، ويهرم مكرهاً ، ويعيش مكرهاً ، ويقوم مكرهاً ، ويسير كذلك مكرهاً :

مَا بَاخْتِيَارِي مِيلَادِي وَلَا هَرَمِي وَلَا حَيَاتِي ، فَهَلْ لِي بَعْدُ تَخْيِيرٌ؟

ولا إقامة إلا عن يدي قدرٍ ولا مسيراً إذا لم يُقَضَّ تيسيراً

فكان الإنسان من ثم مكرهاً على الفساد لأنه من طبيعه فاسد . وفي كل ذلك تشاؤم مطبق استولى على الشاعر من جراء مصائبه ونكباته ومن جراء عدم تفهمه لنواميس الطبيعة الحقة .

٣ - الماورائيات : إن لأبي العلاء ، في كل ما يخرج عن حدود المحسوس ، موقفاً « لا أدرياً » يكثر فيه القلق والاضطراب والتناقض . فهو يؤمن بوجود الله ولكنه يعترف بجهله لحقيقته تعالى :

أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

وهو يثبت كمالات الله ، وخلقه للعالم ؛ وتراه يمارس بعض فرائض الدين ، ويذكر الدين أحياناً بخير ، ثم تراه يصارح بمحدود الدين ويعتقد أن أرباب الدين لا يدينون بحسب العقل أى لا يحكمون العقل في دينهم ، بل يرى أحياناً أخرى أن جميع الديانات متساوية في الضلالة. فهو ينكر الديانات وهو متعبد وهو دين ، لا بل تجد في كلامه أبجل الحث على اقتناء الفضيلة والتقوى والعبادة . ومن اضطرابه وتناقضه يتضح لنا ضلاله في تهجمه على الدين .

والمعرى يؤمن بالبعث وإن اضطرب في إيمانه بعض الاضطراب .

٤ - الأدبيات أو الفلسفة العلمية : أدبيات أبي العلاء مبنية على التشاؤم ، فالرجل شديد التشاؤم ، ساخط على الدنيا ، متبرم بالعالم ، لا يرى فيه إلا شراً مستطيراً لا سبيل إلى دفعه ؛ والدنيا في نظره أفرغت الشر على كل ما فيها سواء أكان حيواناً أم إنساناً :

قد فاضت الدنيا بأذناسها على براياها وأجناسها
وكلُّ حيٍّ فوقها ظالمٌ وما بها أظلمٌ من ناصيها

والإنسان في نظره يصنع الشر طبعاً والخير تكلفاً ، لا يل يرى في مكان آخر أن الخير مفتقد :

مفعولٌ خيرك في الأفعال مُفتقدٌ كما تعدّر في الأسماء فَعْلُولُ
ومع ذلك نرى أبا العلاء يكثر من ذكر الخير في شعره ويعدد صفاته ،
وإذا الخير محبب إلى النفس يجد فيه العاقل لذته وسعادته ؛ إلا أن اللذة التي
يجدها الإنسان في الخير ليست غاية الفعل ولا هي مبدأ من مبادئه لأنها تنقلب إلى
ألم ؛ فالخير يجب أن يطلب لذاته لا لنتفعه ؛ والخير لا يكون خيراً حقيقياً إلا إذا
كان خاضعاً لحكم العقل .

والمعري يسمى الظن بالمرأة ، فهي في نفسه مصدر كل شر ، فهي غادرة
متهالكة على لذاتها ، وهي حبل غي بها يضيع الشرف التليد . وهو يطلب حجاب
المرأة وعدم انصرافها إلى التعلم .

أما المجتمع فيراه المعري فاسداً يسود فيه الهوى والجهل والغرور والرتاء ،
ولا يرى أرباب السلطة إلا أهل المطامع .

وإذا كان الأفراد والمجتمع مغمورين بالفساد ، فلم يبق للإنسان إلا الانعزال
وممارسة الفضيلة .

قال المعري في مقدمة اللزوميات : « قد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث
كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها ؛ والثانية أن يجيء رويه
بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ؛ والثالثة أنه أزم مع كل روى فيه شيء
لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » . فهذا شعر حدد موضوعه
واختير له نظام في القوافي وترتيب على الحروف وحركاتها . وليس هو شعراً كسائر
الشعر ، لا بل هو بعيد عن نتاج الخيال الشعري ؛ يظهر في مبناه التكلف الشديد
من غرابة في اللفظ ، وجناس كثير ، والتزام ما لا يلزم في القوافي ، واستعمال
ألفاظ العلوم المختلفة من عروض ونحو وفقه وما إلى ذلك .

● أبو الفتح البستي (١٠١٠ م) ولد في بست بالقرب من سبستان ، وولى كتابة ديوانها ، ثم انتقل إلى بخارى ومات فيها . له ديوان شعر أشهر ما فيه النونية في الحكم وهي تقع في نحو ميتين بيتاً وعاياها مدار كلامنا .

قصيدة البستي نصائح وإرشادات تساعد الإنسان على حسن التصرف في الحياة وعلى تفهم الأمور كما هي . فالشاعر يوجه كلامه فيها إلى العقل بهدوء واتزان ، ويحاول الإقناع عن طريق الرصانة والاتزان في الرأي ومواجهة الحقائق والواقع . وكلامه كله موسوم بسمة الحقيقة من غير ما مغالاة ولا انتفاضات عصبية . فالخير هو خير ما يطلب الإنسان على وجه الأرض ، وهو خير وسيلة لاكتساب الرضى وللحصول على الراحة والاطمئنان . وكل ما يربحه الإنسان في غير محض الخير هو في الحقيقة خسران :

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نَقْصَانُ وَرَيْحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

وذلك أن كل شيء على الأرض خاتمته الخراب ما عدا الخير الذي هو العمران الوحيد والبناء الذي لا ترعزعه الليالي . والخير يتجلى بالإحسان إلى الناس ومديد الندى والمساعدة . وذلك أن الإنسان من طبيعته ميال إلى حب ذاته وحب المال ، فالإحسان هو القبض على أقوى نزعات الإنسان ، وهو التسلط عليه في غير استفزاز ولا إثارة :

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ
مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فِتْنَانُ

ثم إن المسألة خير الوسائل لتجنب غوائل الناس ، ولكن المسألة غير الاستئامة إلى الأشرار ، تلك الاستئامة التي يتخذها الشر طريقاً :

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ فِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صِلْ وَتُعْبَانُ

ثم إن البسنى يرفع عرشاً للعقل ، وإذا هو أهم مدبر في الحياة ، وإذا العقل
يحتل في فلسفته مرتبة عالية جداً في عهد السيطرة العقلية :

حسبُ الفسى عقله خلا يعاشِرُهُ إذا تحاماهُ إخوانُ وخلانُ
مَنْ كان للعقل سُلطانٌ عليه غذاً وما على نفسه للجرِصِ سُلطانُ

ثم يصل الشاعر إلى النفس فينبه إلى أن الإنسان إنما هو إنسان بنفسه
لا بجسمه ، ومن ثم فعلى المرء أن يستكمل فضائلها :

أقبل على النفسِ فاستكملِ فضائلها فأنتَ بالنفس لا بالجسم إنسانُ

ثم أخيراً يصل الشاعر إلى الله تعالى ويظهر أنه الركن والمعتم:

واشدُّ يدِيكَ بحبلِ اللهِ معتمِصِماً فإنَّه الركن إن خانتكَ أركانُ

وهكذا يبسط البسنى النظرات الصائبة ، ويقم فلسفته على حقيقة طبيعة
البشر ، وعلى حقيقة طبيعة الدنيا ، وعلى حقيقة وجود الله تعالى . وهكذا يظهر
البسنى حنكة وعمق معرفة ، وهكذا تبدو لنا نزعة العقلية الروحانية .

• • •

تلك كانت الحكمة في العهد العباسي : لقد اصطبغت بصبغة المدنية الجديدة
والثقافة الجديدة ، وانطلقت قوية المعنى وقوية المبنى في قسم كبير منها . وقد
كانت ثمرة الخبرة والمعرفة ، ثمرة العقل الاختباري والعقل التفكيري ، ولهذا كانت
الحكمة العباسية شديدة التأثير ، شديدة الانطلاق والانتشار ، ولهذا كان لها
قيمة إنسانية حقة ، وكانت الكثر الذي اغترف منه الناس على ممر العصور .

أما في عهد الانحطاط فقد كانت الحكمة صدى لحكمة بني العباس
كما كان الأمر في أدب الأندلس . وذلك أن عهد الانحطاط في الأدب عهد
انهيار فكري وفني ، فكان الأديب فيه شديد التلفت إلى من سبقه ، شديد

التقليد والزخرفة اللفظية والبديعية ، شديد التلهي بالقشور والظواهر الفنية ؛ وكذلك كان الأديب الأندلسي صادفًا عن التعمق في التحليل ، والانفلات في أجواء الفكر ، صادفًا عن التغلغل إلى الأغوار ، يهمله أن يقلد الأديب العباسي ، وأن يلوك أفكاره ، ويردد بعض حكمه من غير ما ابتكار ولا تجديد . وقد اشتهر في الحكمة والمثل من أدباء الانحطاط زين الدين عمر بن الوردى .

● ابن الوردى (١٢٨٩ - ١٣٤٨ م) ولد في معرة النعمان وقد نشأ مكبًا على علوم اللغة والأدب فحصل منها الشيء الكثير ، وراح يكتب في التاريخ والنحو وينظم الشعر ، وله ديوان شعري أشهر ما فيه قصيدة حكيمية عرفت « بلامية ابن الوردى » ، وهي تقع في سبعة وسبعين بيتاً .

وحكمة ابن الوردى نثر في قالب موزون ، وهي تخلو من كل روعة أدبية ، وإن لم تخل من معرفة عميقة لأخلاق الناس وطبائعهم ، ولأحوال الدنيا وأحداثها . وهذه الحكمة دستور أخلاقى يتضمن آداب النفس وآداب المعاملة ، وهو قائم على نظرة جدية إلى حقيقة الأشياء من غير ما تمويه ولا تزيف . فالحياة قصيرة مهما طالت ، والموت أمر محتوم على كل إنسان ، فسبيل العاقل أن يلزم جانب الرصانة ، وينظر إلى عاقبة كل شيء ، متذرعاً بالتقوى والزهد في أباطيل الأرض ، والاعتماد على النفس ، وأن يتسلح بالمداراة والقناعة ، فلا تبطره نعمة ولا تغره ابتسامة ؛ وسبيله أيضاً أن ينمى عناصر الشخصية فيه بتحصيل العلم وتوسيع نطاق المعرفة وتقوم اللسان وما إلى ذلك . وابن الوردى من الذين يتعشقون الآفاق ويدعون إلى الأسفار ولا يقيمون حداً للوطنية ، لأن وطن الإنسان كل أرض تطوَّرها قدماءه ، وكل فضاء يستظل سماءه ، ولأن أهل الإنسان كل جماعة تقوم بينها وبينه عاطفة مودة وإخاء .

وشعر ابن الوردى ظاهر الجمود ، ضعيف التسلسل ، بعيد عن كل انطلاق في عالم الخيال ، يسير في سلاسة وسهولة عجيبتين . وإن فيه من الأبيات

ما يدور على ألسنة الناس ، وما أصبح نموذجاً من نماذج الحكمة البشرية التي تعبر
عن الحقائق العميقة في ظاهر من البساطة يروق ويعجب .

وهكذا كانت حكمة ابن الوردى حكمة ائزان ورسالة ، موسومة بالسمة
الدينية ، ومصطبغة بصبغة التفاؤل والواقعية . قال :

اعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْعَزَلْ وَقُلِ الْفَضْلُ وَجَانِبٌ مِّنْ هَزَلٍ
وَدَعِ الذِّكْرَ لِأَيَّامِ الصَّبَا فَلَأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمٌ أَقْلٌ
إِنْ أَهْنَا عَيْشَةُ قَضَيْتَهَا ذَهَبَتْ لِدَانِهَا وَالْإِثْمُ حَلٌّ

• • •

كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ فُلٌّ مِّنْ جَمْعٍ ، وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ
أَيْنَ نَمْرُودٌ وَكَنْعَانُ وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ بِخَلٍّ؟
أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلَ؟
أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَدَّوْا؟ هَلَكَ الْكَلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ
أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَابِ أَهْلُ النُّهَى أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ

• • •

أَيُّ بُنَى اسْمَعُ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكْمًا خَصَّتْ بِهَا خَيْرَ الْمَلَلِ
اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْمَلْ ، فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَعَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرُ مَا بَدَّلِ
وَاتْرِكِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَّلِ

عيشة الزاهدِ في نحصيلها عيشة الجاهد بل هذا أزل
 كم جهولٍ وهو مُشرٍ مكثِرٌ وحكيمٍ ماتَ منها بالعِلَلِ
 كم سُجاعٍ لم يَنْلُ منها الغنى وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الأَمَلِ
 فَاتَرَكَ الحِيلَةَ فيها وَاتَمِذُ إِنَّمَا الحِيلَةُ فِي تَرَكَ الحِيلِ

* * *

لا تَقُلْ أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ
 قَدِ يَسْوَدُ المِرَّةُ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَبِحُسْنِ السَّيِّكِ قَدِ يُنْفَى الزَّغَلُ
 وَكَذَا الوَرْدُ مِنَ الشُّوكِ وَهَلْ يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلا مِنْ بَصَلٍ؟
 قِيَمَةُ الإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ أَكْثَرَ الإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلُّ
 بَيْنَ تَبْذِيرِ وَبُخْلِ رُتْبَةٌ وَكَلَّا هَدِيدِ إِنْ زَادَ قَتَلَ

* * *

حُبُّكَ الأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَاغْتَرِبْ تَلَقَّ عَنِ الأَهْلِ بَدَلُ
 فِيمُكِّثِ المَاءَ يَبْقَى آسِنًا وَسُرَى البَدْرِ بِهِ البَدْرُ اكْتَمَلُ

الفصل الخامس

الحكمة والمثل في الأدب الحديث

قال أنيس المقدسى :

« الحكمة الشعرية عبارة عن نظرة صائبة في الحياة . وقد كانت قديماً ترسل في أبيات أو مقطوعات خلال بعض الأغراض الشعرية، كالمديح أو الفخر أو الرثاء أو الزهد . وعن هذه الطريق وصلتنا حكم زهير وأبي العتاهية وأبي تمام والمنتبى والمعرى واليازجى وشوقى وسواهم . ويستثنى من ذلك بعض القصائد المخصصة للوعظ والإرشاد كقصيدة ابن الوردي "اعتزل ذكر الأغاني والغزل" أو التي هي مجموعة حكيمة "كذات الأمثال" لأبي العتاهية وما جرى مجراها .

وقد أجاد العرب في كل ذلك . على أنك قلما ترى في الشعر العربي القديم محاولات فنية يراد بها تصوير المجردات أو النظر في مزاياها . فلم يعالجوا بتصميم فكري أمثال هذه المواضيع : الحقيقة - السعادة - الفضيلة - القوة - الاشتراكية - الإنسانية - الروح - الخلود - الحجة - وليس لهم فيها ما للمحدثين ، وإن يكن هؤلاء لا يزالون في ذلك بعيدين عما بلغه كبار أدباء العرب .

ولا يراد بالشعر التأملى أن ينظر الشاعر نظار الفيلسوف فيحلل ويقبس ويستنتج بناء على مقدمات عقلية ، بل أن يدرك قيمة الأشياء ويصور لنا إدراكه تصويراً جميلاً يطربنا ويغذى خيالنا . على الشاعر المفكر أن يرفعنا إلى مستوى من الاختبار الروحي نتعالى فيه عن حياتنا العادية ، وننحدر من قيودنا المادية .

والفرق الأساسى بين الشعر الحكيم القديم والشعر التأملى الحديث أن الأول خطرات سانحة تعرض للشاعر في مناسبة من المناسبات ، أما الثانى فنصور خيالية

ذات موضوع واحد يرسمها لنا الشاعر ملونة بألوان نفسه فتجىء مشرقة بجمال الفن مالكة أسباب الإبهاج .

• • •

وهكذا ترى أن الحكمة انتقلت في الأدب الحديث إلى طور التأمل ، وأنها أصبحت أكثر اتساعاً ، وأرفع مقطعاً ، وأعمق أغواراً ، وأكثر معالجة لشؤون البشر وقضايا الاجتماع البشرى .

ونحن نفهم بالأدب الحديث هنا أدب النهضة منذ فجرها إلى يومنا هذا . وهو لا يخلو من قصائد حكيمية كما لا يخلو من أمثال وحكم منثورة هنا وهناك في مختلف أبوابه . وذلك أن اتجاهه التأملى لم يجر دفعة واحدة ، بل اتبع سنة النشوء والارتقاء ، وراح يتطور بفعل احتكاك الشرق بالغرب ، وبفعل الوعي القومى والاجتماعى ، وأخيراً بفعل الثقافات الجديدة ، ولا سيما الفلسفية منها والزراعات الاجتماعية الجديدة التى كان لها أثر شديد في حياة الشعب وفي تفكيره وأدبه .

وإنه ليضيق بنا المجال لو أردنا تتبع الحكمة والمثل عند جميع شعراء النهضة ، ولهذا سنقتصر على ذكر البعض منهم ، وعلى ذكر المناحى المختلفة التى تراءى لنا في مجالات التفكير التوجيهى . وأول شاعر نذكره هو الشيخ ناصيف اليازجى أحد أركان النهضة الحديثة ، وقد تتبع الشعراء السابقين في جميع أبواب شعرهم وجعل للحكمة محلاً واسعاً في ديوانه ، فنظم فيها عدة قصائد ، ثم إنه نثرها في مختلف أغراض قوله ، ولا سيما الرثاء منها ، كما نثرها في مختلف مقاماته .

وإننا إذا أجلنا النظر في شعره وجدناه يعنى في التأمل بمصير الإنسان ، ويقف طويلاً أمام الموت الذى يودى بكل شىء لا يرعى لأحد حرمة ، ثم يحرض على الزهد في حطام الدنيا ويدعو إلى القناعة والابتعاد عن البخل والفحشاء ، كما يدعو إلى العلم ومصاحبة ذوى المعرفة وذوى النفوس الكبيرة . والشاعر يجول في الموضوعات الاجتماعية المختلفة ويخطط للإنسان طريقاً من رشاد

يستطيع ، إذا سار عليها ، أن يعيش شريفاً وأن يرضى نفسه ولا يتعرض
لسهام اللؤم والشمر .

واليازجى يرسل الحكمة محاولاً أن يقلد فيها من سبقه ولا سيما المنبى ،
ولكن حكمته جامدة ، خالية من تلك الروح الوثابة التي تعصف في شعر
أبي الطيب . ويكتنف حكمة اليازجى جوّ من التشاؤم الذي يضغط على نفس
القارئ ، كما يعنورها كثير من السطحية التي تجعله يقول ما يعرفه الناس ، إلا في
ما ندر .

وأسلوب اليازجى هو أساوب السهولة الرائعة ، والسلاسة العذبة ، والكلام
البعيد عن كل صنعة وتعقيد ، ذلك الكلام الذي يجري مع الطبع ، ويلج النفس
والقلب سحراً وسلاماً فلا تضطرب له أعصاب ولا يختلج له فؤاد .

وإليك بعض ما قال :

لَعْمُرْكَ لَيْسَ فَوْقَ الْأَرْضِ بَاقٍ	وَلَا مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ وَاقٍ
وَمَا لِأَمْرِهِ حَظٌّ غَيْرَ قَوْتٍ	وَتُوبٍ فَوْقَهُ عَقْدُ النَّطَاقِ
وَمَا لِلْمَيْتِ إِلَّا قَيْدُ بَاعٍ	وَلَوْ كَانَتْ لَهُ أَرْضُ الْعِرَاقِ
وَكَمْ يَمْضِي الْفِرَاقُ بِإِلِقَاءِ	وَلَكِنْ لَا لِقَاءَ بِإِلَافِرَاقِ
أَهْلِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا سَبِيلاً	مُحِبٌّ بَاتَ مِنْهَا فِي وَثَاقِ
وَأَخْسَرُ مَا يَضِيعُ الْعَمْرُ فِيهِ	فُضُولُ أَلْمَالِ تُجْمَعُ الْمِرْفَاقِ
وَأَفْضَلُ مَا أَدْنَتْغَلَّتْ بِهِ كِتَابٌ	جَلِيلٌ نَفْعُهُ حُلُوُ الْمَدَاقِ
وَعِشْرَةٌ حَادِقٍ فَطِنٍ لَبِيبِ	يُفِيدُكَ مِنْ مَعَانِيهِ الدَّقَاقِ
مَضَى ذِكْرُ الْمُلُوكِ بِكُلِّ عَصْرِ	وَذِكْرُ السُّوقَةِ الْعُلَمَاءِ بَاقِ

وَكَمْ عِلْمٍ جَنَى مَالًا وَجَاهًا وَكَمْ مَالٍ جَنَى حَرْبَ السَّبَاقِ
 وَمَا نَفَعَ الدَّرَاهِمَ مَعَ جَهْلٍ يُبَاعُ بِدِرْهِمٍ وَقَتَ النِّفَاقِ
 إِذَا حُمِلَ النُّضَارُ عَلَى نِيَابِ فَأَيُّ الفَخْرِ يُحَسَّبُ لِلنِّيَابِ
 وَأَقْبَحُ مَا يَكُونُ غَنَى بِخَيْلِ يَغْصُ وَمَاؤُهُ مِلءُ الزُّرْقَانِ
 إِذَا مَلَكَتْ يَدَاهُ الفِلسُ أَمْسَى رَقِيقًا لَيْسَ يَطْمَعُ فِي العِتَاقِ
 أَلَا يَا جَامِعَ الأَمْوَالِ هَلَّا جَمَعْتَ لَهَا زَمَانًا لِافْتِرَاقِ
 رَأَيْتُكَ تَطْلُبُ الأَبْحَارَ جَهْلًا وَأَنْتَ تَكَادُ تَفْرُقُ فِي السَّوَاقِ
 إِذَا أَحْرَزْتَ مَالَ الأَرْضِ طُرًّا فَمَا لَكَ فَوْقَ عَيْشِكَ مِنْ تَرَاقِ
 أَتَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ كَبِشٍ وَتَلْبَسُ أَلْفَ طَاقٍ فَوْقَ طَاقِ ؟
 فَضُولُ المَالِ ذَاهِبَةٌ جُرَافًا كَمَا هِ ضَبٌّ فِي كَأْسِ دِهَاقِ
 يَفِيضُ سُدَى وَقَدْ يَسْطُو عَلَيْهَا فَيَنْقُصُ مِلْأَهَا عِنْدَ انْدِفَاقِ
 مَضَتْ دُولُ العُلُومِ الزُّهْرَ قَدَمًا وَقَامَتْ دَوْلَةُ الصُّفْرِ الرِّقَاقِ
 وَأَبْرَزَتْ الخِلَاعَةَ مِعْصَمِيهَا وَبَاتَ الجَهْلُ مَمْدُودَ الرُّوَاقِ
 وَأَصْبَحَ يَدْعَى بِالسَّبِقِ جَهْلًا زَعَانِفُ يَعْجِزُونَ عَنِ اللِّحَاقِ

• • •

ولحمود سامي البارودي حكم كثيرة أطلق فيها لسانه ولكنها ، بجملها غير
 مبتكرة ، وقع عليها السابقون ، على حد قول بعض النقاد ، وصاغها البارودي
 صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم . وهي قريبة المأخذ ، قليلة التحليل ، بعيدة

عن كل ما يسمى فلسفة أخلاقية . وللبارودي أبيات حكيمة جرت مجرى الأمثال كقوله :

وَمَنْ تَكُنِ الْعَلِيَاءُ هَمَّةَ نَفْسِهِ فكلُّ الذي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحِبِّبٌ
وقوله :

إِذَا سَاءَ صُنْعُ الْمَرْءِ سَاءَتْ حَيَاتُهُ فما لِصُرُوفِ الدَّهْرِ يُوسِعُهَا سَبَابٌ
ومثل اليازجي والبارودي عدد كبير من الذين أرسلوا الحكمة وضرَبوا المثل على سنة الأقدمين ، ولكن هنالك عدداً كبيراً آخر من الذين جروا في طريق التأمل ، أو الذين حاولوا أن يجعلوا من حكمهم وأمثالهم دراسات أخلاقية ونصائح متسلسلة ، وكل ذلك في سير مستقيم نحو النزعة التأملية الواعية . وقد عاجلت الحكمة الحديثة موضوعات شتى أوحت بها البيئة الجديدة والنفسية الجديدة من مثل الإصلاح الذاتي والاجتماعي ، والوطنية ، والحرية ، وتطلب العلم والثقافة ، وتحرير المرأة من قيود الجهل والحجاب وما إلى ذلك ، ومن مثل المحبة التي تمد يدها إلى الفقير والضعيف ، والروح الاقتصادية التي تساعد على رفع شأن البلاد إلى غير ذلك من الموضوعات .

• • •

فهناك مثلاً خليل مطران شاعر العقل والفن ، وقد ترك لنا ديواناً صغيراً طبع بعد وفاته عنوانه « إلى الشباب » ، وهو مجموعة أراجيز في أحدث وسائل النجاح من الأخلاق والآداب ، وهو دستور اجتماعي لأبناء العصر يحوى مبادئ اجتماعية ، وأحمد الخصال ، ومهينات النجاح ، وإرشادات في المعاملة والاقتصاد ، ووصايا عامة . أما المبادئ الاجتماعية فتدور حول الله وعظائم الخالق ، والعبادة وطرقها ، والوطن وتفديته ، والوطنية العاملة ، والحرية القومية ، والرابطة الأهلية ، والتعاون ، والتسامح بين عناصر الأمة ، وإكرام الفضلاء ، وخدمة النفس في سبيل الوطن ، وتعهد النفس بالعلم والفضيلة ، والجسم بالنظافة والرياضة . . .

ونزعة الشاعر في هذا القسم من ديوانه نزعة عقلية مثالية ، نزعة اتزان وسمو ، نزعة هدوء سخي ؛ وأقواله ممسوحة بمسحة الثقافة العالية ، والاطلاع الواسع على أحدث ما وصلت إليه علوم النفس والتربية ، وهي ذات تطلع شمولي ونظر غيري :

بِرُّ الْفَتَى بِنَفْسِهِ مَبْرَةٌ بِجَنَنِيسِهِ
وَمَنْ أَصَابَ مَنَفَعَهُ أَصَابَهَا الْقَوْمُ مَعَهُ
وَكُلُّ صُنْعٍ حَسَنٍ كِرَامَةٌ لِلسُّوْطَنِ

وأما أحمد الخصال عند مطران فالبر بالوالدين ، وتوقير الكبار ، ورعاية الجار ، وتجنب الهزل المفرط ، والتفادي من السباب ، وتخير البيئة والخلاء ، وصلابة الرأي ولين الرد ، وحفظ الجميل ، والوفاء ، والتواضع ، والمصارحة ، وكمثال السر ، والحياء ، واجتناب البغضاء ، والعطف على الفقراء ، وما إلى ذلك وكأني بخليل مطران في هذا القسم قد صور لنا أخلاقه الاجتماعية العالية التي أسرت جميع من عرفوه ، والتي جعلت منه الشخص المثالي الذي استعلى على أبناء عصره بتواضعه ولينه . قال مطران : « في المعادة وحدها تاريخ تكون شخصي ، فقد كان هنالك عاملان يفعلان في نفسي : شدة الحساسية ومحاسبة النفس . ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص » . وقال إبراهيم سليم النجار : « أبداع وأعجب ما في شاعر القطارين أخلاقه وآدابه بلا جدال . وإنني لأقول بحق وصدق إنني لم أر لها مثيلاً ولم أسمع بمثلاً . صحبت الخليل صحبة قريبة وثيقة أكثر من ربع قرن لم أسمع من فيه كلمة سوء بحق أحد من الناس أياً كان ، سواء أكان غريباً أم قريباً . ولم أره مرة في حالة حدة أو غضب ، حتى لظننت أنه لا يعرف الغضب ، واو حمل عليه ، ولم يأخذ أمراً من الأمور بالحدة واو دفع إليها . . . وكانت نتيجة خلق الخليل الطيب الرضي أنني لم أعرف له في مصر لا أقول عدواً أو خصماً ، بل رجلاً واحداً كارهاً مبغضاً » .

وأما مهينات النجاح في نظر الخليل فأداء الواجب ، والكد والمتابعة ، والتأمل والتعمل ، والتأني ، والقيام بكل عمل في حينه ، والصبر والحلم والكياسة ، والتثبت والتفطن ، والتنبه والحذر ، والشجاعة ومواجهة الحقيقة ، والمشاركة وما إلى ذلك .
قال الخليل :

مَنْ يَتَمَلَّكَ طَبْعُهُ فِي الْخَلْقِ يَشْرَعُ شَرْعَهُ
وَبَارِعُ التَّصْرِفِ يَكْمُلُ بِالتَّنْظُرِ
كُنْ كَيْسًا لِأَحْمَقَا تَكُنْ عَزِيزًا مُتَّقِي
وَتَقْضِ بِالْإِيْناسِ مَا شِئْتَ بَيْنَ النَّاسِ

• • •

وأما إرشادات الخليل في المعاملة والاقتصاد فقاومة على تضلعه من علم الاقتصاد ، وذلك أن الرجل كان من أركان النهضة الاقتصادية في العالم المصري ، وقد عين سكرتيراً معاوناً بالجمعية الزراعية الملكية وأظهر في عماله من المهارة ما لفت إليه الأنظار . والجدير بالذكر أن شاعرنا حذق فن الاقتصاد والزراعة إلى حد بعيد ، حتى كلف وضع « البرنامج التأسيسي » لبنك مصر ، وحتى أسس « النقابة الزراعية المصرية » . و « مما يذكر عن مطران أن المذكرات التي كان يضعها رجال المال والاقتصاد في مصر كانت تعرض عليه ، كما كانت المذكرات القانونية التي يضعها رجال القانون ، وفيها مساس بشؤون المالية ، تعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة » (١) .

ومن ثم فقد نظر الخليل في العرض والطلب وبين أن :

مَعْنَى الْحَيَاةِ الْحَرَكَةُ مَا فِي الْجُمُودِ بَرَكَةُ

وراح يطرى الاستقامة في المعاملة ويوضح أنها الطريق الثابت إلى الثروة
المادية والمعنوية ، وأن العجرفة آفة التكسب وأنها غير الأنفة ؛ وراح يبين مكان
المال من المجتمع :

مَا قَامَ فِي الْأَعْمَالِ شَيْءٌ بَغَيْرِ مَالٍ

وراح يوضح معنى الغنى ، وبلاء الفقر ، وطرق الإبقاء على الثروة ، والفرق بين
الإسراف والكرم، وما إلى ذلك مما يدل على دقة في النظر ، وعلى تفهم صحيح
لحقيقة الاقتصاد .

• • •

وأما الوصايا العامة التي يوجهها الخليل إلى أبناء العصر ويجعلها نقطة الدائرة
فهي أولاً التحقيق في العلم ، وقد رأى ما يعتور علم أبناء هذا الزمان من التسرع ،
فهو يطلب استتمام العلم لأن هذا الزمان يقهر من لا يمهر ، ويطلب كثرة العلم في
غير توزع ولا سطحية . وهو يطلب التجويد في الصناعة لأن النجاح في البراعة ،
والبراعة رقيقة الإتقان والجلد ، ويطلب كذلك تحديد الهدف في الحياة والعمل
ويقول :

فِعْلٌ لِغَيْرِ غَايَةٍ مِنْ بَدْنِهِ غَوَايَةٌ

وهو يرى أنه لا بد من مجازاة السجية والاعتماد على الشخصية كما أنه لا بد
من الأخذ من علم الغير والرجوع به إلى السجية وذلك أن الاعتماد على النفس سر
النجاح :

أَفْلَحَ سَعِيًّا مِنْ عَلَيَّ مَجْهُودِهِ قَدْ عَوَّلَا

والنظام في نظر الخليل هو أيضاً سر النجاح ، فعلى المرء أن ينظم عمله منذ
الشروع فيه :

مُنْذُ الشُّرُوعِ فِي عَمَلٍ نَظَّمَهُ تَذَرِكُ الْأَمَلُ

والمبدأ في الحياة أصل الشرف والمناعة :

فإن تكن ذا مبدأ فأنت أشرف امرئ

والثبات في العمل عون الفلاح :

أفلح ذو الثبات لا صاحب الهبات

والحرص على الوقت ضمانه ، كما أن الإبداء (Initiative) والذاتية والاجتهاد والإرادة والأمل والتفاؤل ، كل ذلك من أقوى وسائل العمل والنجاح فيه .

تلك بعض آراء خليل مطران التي نجدها في كتابه « إلى الشباب » وإن له حكماً أخرى مثورة في مختلف أبواب شعره، ثار فيها على الظلم والاستبداد كما حارب بها وضع الشرق وقد عراه الضعف وخيم عليه الجهل .

• • •

وهناك أحمد شوقي وقد عالج في شعره سياسة البلاد وحالتها الاجتماعية ، وأرسل في ذلك الشعر آراءه حكماً مرصوصة حافلة بالروعة ، أو أبياتاً جرت مجرى الأمثال .

أحب شوقي وطنه في ماضيه فأحيا آثاره ، وأحب في حاضره فأيد سياسته ، وأحب في مستقبله فأراد أن يهيئه له كأفضل ما يكون التهيؤ ، فتناول بعض النواحي الاجتماعية ، وعالجها في شعره، ومما عالجها التربية ، والمرأة ، والعمل :

١ - التربية : هي في نظر الشاعر الركن الأساسي الذي يقوم عليه صرح الاستقلال والرقى ، لا بل هي العنصر الذي تنهار بدونه حياة الأمة الأدبية والعقلية :

تَرَكَ النَّفْسِ بِلاِ عِلْمٍ وَلَا أَدَبٍ تَرَكَ الْمَرِيضَ بِلاِ طِبِّ وَلَا آسِ

فالعلم نور لا يحق حجبها ، بل هو كتر مشاع لا يجوز لأحد أن يستأثر به ،

فتحرّيمه على النساء ظلم صارخ وجريمة كبرى تنالهن وتنال أبنائهن ، بل تنال الوطن نفسه :

وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِّيَّةٍ رَضَعَ الرَّجَالُ جِهَالَةً وَخُمُولًا

ورسالة المعلم تكاد تكون سماوية ، وهي أشرف الأعمال وأجزؤها نفعاً على البلاد :

أَعْلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا

ولما كانت أساليب التعليم يومئذ بعيدة عن الروح العصرية حمل الشاعر حملة شريفة على تلك الأساليب البالية وما فيها من صعوبة تكره إلى الطالب حياة الدراسة . وتحببياً للعلم ، وغبرة على بث المبادئ الأخلاقية والاجتماعية في النشء الطالع ، خص شوق الأحداث بقسم وافر من أوائل منتوجاته الشعرية ، فنظم لهم أدعية مختلفة المواضيع (دعاء الصباح ، دعاء النوم) وأناشيد وطنية ومدرسية تمتاز في الغالب برشاقة الأوزان ، وعدوبة الألفاظ ، وجمال الغنة الموسيقية .

٢ - المرأة : عاصر الشاعر ظهور الحركة النسائية في مصر واتساع نطاقها على يد زعيمها قاسم أمين ، فترك الشعر التهذيبي ، وناصر الحركة الجديدة ، وقد عرض منها بنوع خاص لضرورة تعليم المرأة ، ثم لقضية الزواج والحجاب .

أما زواج الفتيات فيريده الشاعر حرّاً على غير إكراه ألبتة ، بعيداً عن أن يكون عقد بيع وشراء بين أهل الفتاة وأهل زوجها . وما يستنكره شوق خصوصاً في هذا الباب تزويج الفتيات بالثيب :

الْمَالُ حَلَّلَ كُلُّ غَيْرِ مُحَلَّلٍ حَتَّى زَوَّجَ الشَّيْبِ بِالْأَبْكَارِ
مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الْفَتَاةَ وَإِنَّمَا يَبِيعُ الصُّبَا وَالْحُسْنَ بِالْدَيْنَارِ

أما «الحجاب» فقد حافظ عليه الشاعر في أسرته ، ولكنه لم يكن ليظمن

إليه ، فإن هو اضطرزمتاً إلى القول بضرورته— كما فعل في قصيدته « صداح »— فما ذلك إلا إرضاء لتقاليد البلاط ، حتى إذا تخلص من رسمياته نقض قصيدته بغيرها :

قُلْ لِلرَّجَالِ : طَفَى الْأَمِيرُ طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطْبِرُ^(١)
أَوْهَى جَنَاحِيهِ الْحَدِيدُ دُ وَحَزُّ سَاقِيهِ الْحَرِيرُ
وقد ألمع في كثير من قصائده إلى ضرورة التخلص من نير الحجاب :

فَقُلْ لِلْجَانِحِينَ إِلَى حِجَابٍ أَتُحَجَّبُ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ نَفْسُ
إِذَا لَمْ يَسْتُرْ الْأَدَبَ الْغَوَاقِي فَلَا يُغْنِي الْحَرِيرُ وَلَا الدَّمَقْسُ^(٢)

فقصيدته الأساسية هي أن للمرأة حق الظهور على مسرح المجتمع من غير تقنع ، فإن لم تكن التربية الصالحة معقل الفتاة الحصين كان الحجاب لها سبباً لا حصناً .

٣— العمل : وأراد شوق الإهابة بمواطنيه إلى العمل في سبيل الرق وال عمران وأراد أن يكون عملهم في وثام تام . ومن أشهر قصائده في ذلك « مملكة النحل » .

• • •

وهناك معروف الرصافي شاعر الأبتام والبؤساء وقد فتح عينيه في بيئة متخلفة في كل ناحية من نواحي الحياة ، فشق عليه أن تعيش أمته متخلفة عن مواكب الحضارة والرق ، وراح يستنهض الهمم ويدعو إلى العلم قائلاً :

إِذَا مَا الْجَهْلُ خَيْمٌ فِي بِلَادٍ رَأَيْتَ أَمْوَدَهَا مُسِيخَتْ قَرَوْدًا

• • •

فَكُلُّ بِلَادٍ جَادَهَا الْعِلْمُ أَمْرَعَتْ رِبَاهَا وَصَارَتْ تَنْبَتُ الْعِزُّ لَا الْعُشْبَا

(١) الحجال : جمع حجلة وهي خدر المرأة ، وكنى بطير الحجال عن المرأة إشارة إلى قصيدته الأولى « صداح » التي كان قد كنى فيها المرأة بلبل حميل يحن خوفاً عليه من شباك الصيادين .
(٢) الدمقس : الحرير الأبيض .

وهو يدعو إلى التشبه بالماضين تشبهاً جديداً لأنه :

وما يُجدى افتخارك بالأوَالِ إذا لم تفتخِرْ فخرًا جَدِيدًا
أرى مُستقبلَ الأيامِ أُولَى بِمَطْمَحِ مَنْ يُحاوِلُ أَنْ يَسُودَا
فَمَا بَلَغَ المقاصِدَ غَيْرُ سَاعٍ يُرَدُّ فِي غَدٍ نَظْرًا سَدِيدًا
وهَلْ إِنْ كَانَ حَاضِرُنَا شَقِيًّا نَسُودُ بِكَوْنِ مَاضِينَا سَعِيدًا؟

والعلم الذى يحث على طلبه ، لا يريده إلا إذا كانت الأخلاق رداء له :

وما العِلْمُ إلاَّ النُّورُ يَجْلُو دُجَى العَمَى وَلَكِنْ تَزوَعُ العَيْنُ عِنْدَ انكِسارِهِ
فَمَا فاسِدُ الأخلاقِ بِالعِلْمِ مُفْلِحًا وَإِنْ كَانَ بَحْرًا زَاخِرًا مِنْ بِحَارِهِ
ويقول :

أرى العِلْمَ كَالْمِرْآةِ يَصْدَأُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ سِوَى حُسْنِ الخَلِيقِ مِنْ لِي
أخو العِلْمِ لَا يَغْدُو عَلَى سِوَةِ خُلُقِهِ وَذو الجَهْلِ إِنْ أخلاقُهُ حُسْنَتْ عَالِ
ولو وازَنَ العِلْمُ الجبالَ ولم يَكُنْ لَهُ حُسْنُ خُلُقٍ لَمْ يَزِنْ وَزَنَ مِثقالِ
وَإِنَّ المِساوِى ، وهى فى خُلُقِ عالِمِ لَأَقْبَحُ مِنْها وهى فى خُلُقِ جُهالِ

وهكذا إن اقترن العلم بالأخلاق نهضت البلاد وعم الخير :

إِذا ما العِلْمُ لابسَ حُسْنِ خُلُقِ فَراجَّ لِأَهْلِهِ خَيْرًا كَثِيرًا
وما إِنْ فازَ أَكثَرُنَا عُلُومًا وَلَكِنْ فازَ أَسْلَمُنَا ضَمِيرًا

ثم يأخذ الرصافي في إطرء مهنة التدريس ويظهر إجلالاً للمعلم ثم يدعو إلى التخصص في العلم ، ويحض المتعلم على تطلب ما تميل إليه نفسه وتشبهه من

فروع العلم ونواحيه . وهكذا كان الرصافي من دعاة العلم كما كان شاعر الأخلاق وشاعر البؤس والشقاء يدعو إلى تخفيف عبء البشرية البائسة في رحمة وحنان عجيبين .

وقد عالج الرصافي في حكمته أيضاً موضوع السياسة الشرقية عامة والمحلية خاصة ، فثار على طغيان عبد الحميد ، وثار على الاستعمار ، وثار على كل شذوذ في سياسة البلاد الداخلية ، وله في كل ذلك قصائد مشهورة مثل « تنبيه النيام » و « رقية الصريع » ، و « نحن في بغداد » ، و « إيقاظ الرقود » ، وغيرها .

ومن جميل قوله في ثورته على عبد الحميد :

عَجِبْتُ لِقَوْمٍ يَخْضَعُونَ لِلدَّوْلَةِ يَسْوُسُهُمْ بِالْمُوبِقَاتِ عَمِيدُهَا
وَأَعْجَبُ مَنْ ذَا أَنَّهُمْ يَرْهَبُونَهَا وَأَمْوَالُهَا مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ جُنُودُهَا

ومن جميل قوله في قصيدة خص بها طرابلس الغرب :

وَمِنْ مُبْكِيَاتِ الدَّهْرِ أَوْ مَضْحَكَاتِهِ لَدَى النَّاسِ حُرٌّ لَمْ يَكُنْ خَصْمَهُ حُرًّا

ومن قوله في ثورته على المعاهدة العراقية - الإنكليزية :

وَالْعَهْدُ بَيْنَ الْإِنْكِلِيزِ وَبَيْنَنَا كَالْعَهْدِ بَيْنَ الشَّاةِ وَالرُّثْبَالِ

• • •

مَنْ شَفِيقَ الْقَوَى عَلَى ضَعِيفٍ وَكَيْفَ يُعَاهِدُ الْخِرْفَانَ سَيْدُ
وَلَكِنْ نَحْنُ فِي يَدِهِمْ أَسَارَى وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عَهْدٍ قِيُودُ

تلك بعض آراء الرصافي ، وهي ، كما لا يخفى ، مما يعبر عن آلام الأمة وآمالها وما سار على ألسنة الناس ، وما ردهه القاصي والداني من أبناء هذه البلاد

التي تعاني من أسباب الضغط ما تعاني ، والتي تحاول في همة جبارة أن تنفض عنها نير الطغيان والاستعباد .

• • •

وهناك جبران خليل جبران ، وله ديوان شعري أسماه « المواكب » وضمنه نظرات في الأيام والناس « وقد جعلها محاورة بين شخصين : الأول شيخ خبر الدهر وذاق حلوه ومره ، والثاني شاب في عنفوان قوته يعيش في الغاب بعيداً عن الناس ومفاسدهم . فيتحدث الشيخ عن الحياة وما فيها من ألم وتفرض وظلم وجهل وعبودية وتمويه وشهرة كاذبة وما إلى ذلك ، ويرد عليه الثاني نافياً وجود ذلك في الغاب متعالياً في غنائه عن الآلام والأوصاب » . هذا موضوع الكتاب : جدال فلسفي بين الشيخ والفتي يظهر فيه تمرد جبران خليل جبران على وضع المجتمع ، ونزوعه إلى حل ما في شواعر الحياة وعواطفها من مسائل الحسنات والسيئات . وبعد أن يشبع جبران من تحليلها بلسان الشيخ يتمرد عليها بلسان الفتى ، فتى الغاب الذي يتنكر لكل ما في الحياة من تعقد وتصنع . فهو ينكر العدل إلا عدل الغاب ، وينبذ الشريعة إلا شريعة الغاب ، ويأبى الحب إلا الحب المطلق في الغاب . « وكأني بجبران يرمي في مواكبه إلى تأليه الغاب . ويا له من تأليه شبيه بحبور صرف ، وطمانينة صافية تشعر بها النفس المستريحة الملتجئة إلى الغاب بعد هربها من ضوضاء المدينة ومخافاتها . فالغاب عنده كتاب مقدس كلماته تعاويد تشفى من لذعات فلسفة الحياة . ويحيل لي أن جبران يعشق عشقاً مبرحاً كل معاني جمال الغاب التي تفوق فلسفة الناس لعظمتها وبساطتها . فهو يحب ظلال الحور ، ويهوى خوار الثيران . وصفير الليل ، وأرجوحة النسيم ، وخرير الماء ، وكل ما في الغاب من حركة وصورة . . . وهو يضيف إلى كلامه نغمات الناي المتصاعدة كأنشودة البقاء . وكأني به يتصور أن في نايه صوتاً ينفخ مستنكراً الشواعر المضللة والعادات الواهية وحكمة الاجتماع . فالحياة عنده لولا الناي والغاب جزيرة قاحلة مقفرة » . والغاب في نظر الشاعر هو الطبيعة بأسرها ، هو الانفلات

من كل قيد ، هو السعة المطلقة ، والحرية الواسعة ؛ هو الرجوع إلى البساطة الكلية ، إلى تلك البساطة المثلى التي يتخيلها الشاعر ويجعل منها عالماً غير العالم الواقعي الحقيقي ، عالماً خيالياً يقوم على ثورة جبرانية . قال جبران :

والشُّرُّ في النَّاسِ لا يَفْنَى وَإِنْ قُبِرُوا	والشُّرُّ في النَّاسِ لا يَفْنَى وَإِنْ قُبِرُوا
وَأَكْثَرُ النَّاسِ آلاَتٌ تُحَرِّكُهَا	وَأَكْثَرُ النَّاسِ آلاَتٌ تُحَرِّكُهَا
فَلَا تَقُولَنَّ هَذَا عَالِمٌ عَلَّمَ	فَلَا تَقُولَنَّ هَذَا عَالِمٌ عَلَّمَ
فَأَفْضَلُ النَّاسِ قُطْعَانٌ يَمِيرُ بِهَا	فَأَفْضَلُ النَّاسِ قُطْعَانٌ يَمِيرُ بِهَا
لَيْسَ فِي الْغَابَاتِ رَاعٍ	لَيْسَ فِي الْغَابَاتِ رَاعٍ
فَالشُّنَا يَمْشَى وَلَكِنْ	فَالشُّنَا يَمْشَى وَلَكِنْ
خُلِقَ النَّاسُ عَبِيدًا	خُلِقَ النَّاسُ عَبِيدًا
فَإِذَا مَا هَبُّ يَوْمًا	فَإِذَا مَا هَبُّ يَوْمًا
أَعْطَى النَّائِيَ وَغَنُّ	أَعْطَى النَّائِيَ وَغَنُّ
وَأَنْيُنُ النَّائِيَ أَبْقَى	وَأَنْيُنُ النَّائِيَ أَبْقَى
لَا فِيهَا الْقَطِيعُ	لَا فِيهَا الْقَطِيعُ
لَا يُجَارِيهِ الرَّبِيعُ	لَا يُجَارِيهِ الرَّبِيعُ
لِلَّذِي يَأْبَى الْخُضُوعُ	لِلَّذِي يَأْبَى الْخُضُوعُ
سَائِرًا سَارَ الْجَمِيعُ	سَائِرًا سَارَ الْجَمِيعُ
فَالغِنَا يَرعى الْعُقُولُ	فَالغِنَا يَرعى الْعُقُولُ
مِنْ مَجِيدٍ وَذَلِيلٍ	مِنْ مَجِيدٍ وَذَلِيلٍ

وهكذا ينطلق جبران في مواكبه متخيلاً ، متشامماً ، ناثراً على الناس وتقاليدهم وشرائعهم ، داعياً إلى التحرر والانطلاق .

• • •

وهناك أبو القاسم الشابي الذي يرى أن الناس لا يستشعرون السعادة ولا يتحسسونها إلا باستسلامهم لمشيئة الدنيا ، وامتناعهم لقضائها وأحكامها ، وتجنبهم الملل والتبرم منها ، إذ ليس في الدنيا من تألم فرحهم ، أو تجلد فرجهم . وهذه هي سعادة الناس التي لا يدركونها ويتذوق ثمارها إلا رجل يريد أن يتسم له الدنيا وتواتيه حظوظها ، فيما شياها كما تريد ويستسلم لما تحويه الليالي وتأتي به الأيام .

ويرى الشابي أن السعادة في حياة الناس شيء جميل طمحووا إليه فهبوا يحدون في سبيله ، ولكنه ناء بعيد ، لا يدركونه بحال ، والسعيد من عاش كما شاءت الحياة «^(١) . والشابي - شأن جبران - لا يعرف للسعادة وجهاً إلا في حياة الغاب ،

وإن أردتَ قضاء العيشِ في دَعَاٍ شعريّةٍ لا يُغشّي صفوّها نَدَمٌ
فاترك إلى الناس دنياهم وضجّتهم وما بنوا انظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دَوْحاً مُزهِراً نضراً في عِزّة الغاب ينمو ثم ينعمم
واجعل لياليك أحلاماً مُغرّدةً إن الحياة وما تدوى به حلُمٌ

وللشابي قصائد مختلفة عرض فيها آراءه في الحياة والوجود، من مثل «إرادة الحياة» ، و «إلى طغاة العالم» ، و «فكرة الفنان» وغيرها . وخلاصة فكرته أن الحياة طموح وأن النصر حليف الطامعين والمكافحين ، وأن الحياة جميلة يجب على الإنسان أن يتمتع بجمالها :

إذا الشَّعبُ يوماً أرادَ الحياةَ فلا بُدَّ أن يستجيبَ القَدَرُ
هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحياةَ ويحتقرُ الميتَ المنذرُ
إذا طمحت للحياة النفوسُ فلا بُدَّ أن يستجيبَ القَدَرُ

وهكذا كان الشابي من دعاة الطموح على ما في آرائه من حيرة ، وهكذا كان الشاعر الشاب الذي أصبحت أقواله أناشيد تدوى أصدائها في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه .

وهنالك شعراء آخرون كثيرون من مثل فوزي المعلوف ، وإيليا أبي ماضي وغيرهما ، وقد عالجوا قضايا الوجود والاجتماع في شعر جري مجرى الأمثال ، ونزع

نزعة التأمل أو الاستدارات القصصية التأملية ، وكان خاتمة المطاف في الشعر العربي التعليمي أو الحكيم من غير أن يكون الذروة التي يمكن الوصول إليها . وهكذا سارت الأمثال والحكم عند العرب . منذ الجاهلية إلى اليوم . سيراً قادته البيئة والثقافة والوعي الاجتماعي والقوى . وهكذا كانت الفلسفة الأدبية والأدب الفلسفي .

مراجع

- ابن عبد ربه : العقد الفريد - بيروت ١٩٥١
- الميداني : مجمع الأمثال
- أبو هلال العسكري : جمهرة الأمثال
- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة - بيروت
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
- أحمد أمين : فجر الإسلام - القاهرة ١٩٤٥
- قصة الأدب في العالم - القاهرة ١٩٤٥
- زهدي يكن : أمثال المتنبي - بيروت ١٩٥٠
- عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع - القاهرة ١٩٤١
- عمر الدسوقي : في الأدب الحديث - القاهرة
- أبو القاسم محمد كرو : الشابى - بيروت ١٩٥٢
- حننا الفاخورى : تاريخ الأدب العربي - حريصا ١٩٥١
- محاضرات معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٥٤
- Encyclopedie de l'Islam

فهرست

الصفحة	
٥	مقدمة
٧	الفصل الأول : الحكمة والمثل
١٥	الفصل الثاني : الحكمة والمثل في الجاهلية :
١٨	● أكرم بن صيفي
١٩	● زهير بن أبي سلمى
٢٢	● لبيد بن ربيعة
٢٥	● طرفة بن العبد
٢٧	● عدى بن زيد
٢٩	الفصل الثالث : الحكمة والمثل في الإسلام :
٢٩	● القرآن الكريم
٣٣	● على بن أبي طالب
٣٧	الفصل الرابع : الحكمة والمثل في العهد العباسي وعهد الانحطاط :
٣٧	● ابن المقفع
٤٤	● أبو العتاهية
٤٥	● أبو تمام
٤٧	● ابن دريد
٤٨	● أبو الطيب المتنبي
٥٦	● أبو العلاء المعري
٦٢	● أبو الفتح البستي
٦٤	● ابن الوردي

الصفحة

٦٧	الفصل الخامس : الحكمة والمثل في الأدب الحديث
٦٨	● الشيخ ناصيف اليازجي
٧٠	● محمود سامي البارودي
٧١	● خليل مطران
٧٥	● أحمد شوقي
٧٧	● معروف الرصافي
٨٠	● جبران خليل جبران
٨١	● أبو القاسم الشابي
٨٥	مراجع
٨٧	الفهرس

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٣٢٤٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٣٣٠ - ٥١ - ٠

١ / ٨٠ / ١١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)